ترجمة: أشرف الصباغ

تقديم د. فيصل درّاج

الوصية السياسية

أفكار بليخانوف الأخيرة

(انهيار التجربة السوفيتية)

مكتبة مدبولى

ترجمة: أشرف الصباغ   تقديم د. فيصل درّاج

الوصية السياسية

أفكار بليخانوف الأخيرة

(انهيار التجربة السوفيتية)



مكتبة مدبولى

الوصية السياسية

أفكار بليخانوف الأخيرة

(انهيار التجربة السوفيتية)

تقديم:

د. فيصل دراج

ترجمة:

د. أشرف الصباغ

اسم الكتاب: الوصية السياسية: أفكار بليخانوف الأخيرة
(انهيار التجربة السوفيتية)
ترجمة: د. أشرف الصباغ
تقديم: د. فيصل دراج
الطبعة: الاولى 2010
رقم الايداع: 19321/2009
الترقيم الدولى:7 - 803 – 208 – 977
الناشر: مكتبة مدبولى
6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
ت: 25756421 ف: 25752854
Web site : www.madboulybooks.com
E_ mail : info@madboulybooks.com
مكتبة مدبولى
2010

إلى أحمد نبيل الهلالي

إنساناً نزيهاً ومناضلاً أخلاقياً

تقديم : د فيصل درّاج

الماركسية ومصائر الثورة

دعا الفيلسوف الفرنسي آلان بادو القرن العشرين بـ "القرن" ـ عنوان كتاب له ـ لأنه شهد، بشكل غير مسبوق ـ ثورات علمية وأدبية وفنية وشهد، أولاً، ثورة أكتوبر التي خرجت منها ثورات عديدة. وإذا كان للثورات غير السياسية منطقاً خاصاً بها، يسمح لها بالتراكم والاستمرار، فإن للثورات السياسية منطقاً آخر، يفرض عليها انزياحاً قليلاً أو كثيراً، أو يدفع بها إلى هزيمة شاملة، منتظرة أو غير منتظرة.

لم يتوقع أحد من أنصار ثورة أكتوبر، كما خصومها، سقوطها بالشكل الذي سقطت به، كما لو كانت كياناً من ورق. وهذا السقوط، الذي رآه بليخانوف، مبكراً، ولم يره غيره، هو الذي يعطي "وصيته" أهمية استثنائية.

نبوءة بليخانوف وسقوط الاتحاد السوفييتي

في نهاية عام 1999 قام الفيزيائي الروسي "نيقولاي ايفا نوفيتش" بالكشف عمّا دعاه : " شهادة القرن . الوصية السياسية : أفكار بليخانوف الأخيرة" تنطوي الشهادة ـ الوصية على أهمية خاصة لأكثر من سبب : فهي صادرة عن ماركسي روسي شهير، لعب دوراً كبير في الحركة الاشتراكية التي أفضت إلى ثورة أكتوبر عام 1971، واعتبر ذاته الأب الروحي ـ السيء الحظ ـ لقائد الثورة الروسية : لينين، مؤسس الدولة الاشتراكية الأولى في تاريخ البشرية ، التي لعبت دوراً محورياً في القرن العشرين ، تحت اسم شهير هو: الاتحاد السوفييتي. يعود السبب الثاني إلى التحليل ـ الرؤيا، الذي تضمنته وثيقة تنبأت بالسقوط الحتمي للاتحاد السوفييتي ـ كتب بليخانوف أفكاره في عام 1918 ـ وشرحت نظرياً أسبابه والعوامل التي دفعت إليه. يتمثل السبب الثالث في المعنى الرمزي لثورة اكتوبر على المستوى الكوني، التي بدت لملايين من البشر، ذات مرة، إعلاناً عن خلاص البشرية الأخير.

يحمل السبب الثاني، من وجهة نظر "الوصية"، دلالة خاصة، تعود إلى وجهه التنبؤي ، بلغة معينة أو إلى بصيرته النظرية ، بلغة أخرى، ذلك أن بليخانوف أراد أن يكون ماركسياً وهو يحلل حدثاً تاريخياً يرفع راية الماركسية ، ظاهرياً على الأقل ، وأن يبرهن أن ماركسية لينين شوّهت ماركسية ماركس وألحقت بها أضراراً جسيمة بعيدة المدى . سمح لنفسه، في الحالين، أن يأخذ بالمنهج الماركسي بشكل طليق، وأن ينبذ القراءة المتحزبة الفقيرة، القائمة على الاستظهار العقيم. لا غرابة أن يعتبره البلاشفة ، أو بعضهم، "منحرفاً"، وأن يبدو "منحرفاً" عند "عقول ثورية" تمتد إلى اليوم.

تقول الفكرة الأساسية الأولى التي يعلنها بليخانوف في وصيته:"إن ديكتاتورية الطبقة العاملة بمفهوم ماركس لن تتحقق أبداً ـ لا الآن ولا في المستقبل". لا تنقص الجرأة هذا الاستبصار أبداً، فصاحبه ماركسي معلن وينتمي إلى ماركس بلا مواربة ويدافع عن ضرورة الاشتراكية، دون أن يضع ذهنه في قفص، أو أن يضع النظرية فوق معطيات الحياة. جاء الثوري الجريء بفكرته في ذروة ثورة أكتوبر التي أوكل إليها لينين، باطمئنان كبير، تحقيق : ديكتاتورية الطبقة العاملة . من الغريب أن يصل بليخانوف إلى ما وصل إليه، في أيامه الأخيرة من عام 1918، وأن يستمر ماركسيون كبار في منتصف سبعينات القرن الماضي، في الدفاع عن "ديكتاتورية البروليتاريا"، حال الفرنسي إيتين باليبار، تلميذ الشهير آلتوسير وأحد أكثر أنصاره شهرة .

أمّا الفكرة الثانية فتقول: "وبقدر التغيّر النوعي لقوى الإنتاج سوف تتشكل طبقات جديدة، وعلاقات إنتاج جديدة، وسيجري الصراع الطبقي بشكل جديد". لن يصل علماء الاجتماع الماركسيون، وخارج "الماركسية الرسمية" على أية حال ، إلى ما وصل إليه بليخانوف إلا في بدايات العقد السابع من القرن الماضي قائلين "وداعاً للبروليتاريا"، دون أن يؤثر اجتهادهم في سياسات الأحزاب الشيوعية، باستثناء الحزب الشيوعي الإيطالي، وبشيء من التعثر أيضاً. والأساسي في هذا هو تلك الثنائية الثابتة: الطبقة العاملة/البرجوازية، التي قالت بها الماركسية السوفيتية، ورددتها أحزاب كثيرة، حتى تلك التي لا يوجد في بلدانها، تقريباً طبقة عاملة.

الفكرة اللاحقة التي لا تقلّ بصيرة عما سبقها هي : "إنني أحياناً أفكر في الفترة الأخيرة أنه حتى نظرية ماركس التي ولدت في ظروف الحضارة الأوربية، من المشكوك فيه أن تصبح نظاماً عاماً لوجهات النظر، لأن التطور الاجتماعي ـ الاقتصادي للعالم يمكن: أن يسير على نمط المراكز المتعددة...". لن تنتشر الماركسية الأوربية الجذور أوروبياً، بسبب المراكز المتعددة المحتملة، ولن تنتشر، بالضرورة، عالمياً بسبب أوروبيتها. أكد بليخانوف في استبصاره اللامع أمرين: أن ردود أفعال أوروبا على الثورة الروسية، سيفرض على حكوماتها أن تتخذ إجراءات واحتياطات تمنعان هيمنة الماركسية، وأن ما هو خارج أوربا لن يسلّم بمبادئ نظرية أوربية المصادر. ومع أن دعاة الماركسية، المخلصين منهم او المفكرين ـ الموظفين، دافعوا "عن كونية النظرية"، فقد برهنت "الماركسيات" الصينية والكورية والفيتنامية، وصولاً إلى "ماركسية الصومال وأثيوبيا" عن صحة خواطر بليخانوف، بعد عقود. رأى الثوري الروسي، في كلماته القصيرة، ما سيقول به ماركسيون غير رسميين، بعد عقود، حين تحدثوا عن: المركز والأطراف، والتطور اللامتكافئ، ونظريات التبعية بشكل عام. وواقع الأمر أن بليخانوف أراد ان يكون "مادياً تاريخياً"، قبل أن يكون ماركسياً، وأن يكون مثقفاً شكوكاً قبل أن يكون ماركسياً يبحث عن الحقيقة، رافضاً أن يساوي الماركسية بالحقيقة، أو بغيرها من النظريات.

يقول بليخانوف في الفكرة الرابعة: لا أعتقد كثيراً،...، أن الرأسمالية ستدفن قريبا،...، لأنها شكل اجتماعي مرن يبدي ردود أفعال على الصراع الاجتماعي، يتغيّر ويتجوّل ويتكيّف، يتأنسن ويتحرك في اتجاه فهم وإدراك وتكييف أفكار متفرقة من الاشتراكية. إذا كان الأمر كذلك، فهي إذن لا تحتاج إلى حفار قبور. وفي كل الأحوال فالرأسمالية لديها مستقبل يبعث على الحسد...". إنها قدرة الشكل الاجتماعي المرن على التعلم والتكيّف والتطور، الذي يضمن له البقاء على قيد الحياة، على خلاف الشكل البيروقراطي المغلق المتكلس، الذي يعارض سلطة الحياة بسلطة تتحالف مع الموت. من الطريف، أو المأساوي، أن حفار القبور، الذي تحدّث عنه الفرنسي روجيه غا رودي في خمسينات القرن الماضي، عثر على عمل في النظام الأشتراكي"، مبتعداً عن رأسمالية لها مستقبل يثير الحسد!!. لم يكن بليخانوف يثني على الرأسمالية بقدر ما كان يتأسى على "دولة اشتراكية وليدة" وقعت في أكثر من خطأ. قرأ صاحب "الوصية" الظواهر في تاريخيتها، إذ أن وضع الطبقة العاملة الأوروبية في بداية القرن التاسع عشر اختلف عما أصبحته في نهايته، وزاد الأمر اختلافاً في بدايات القرن العشرين، وأن العامل، أو البروليتاري، أو "الشغيل" سيأخذ، في المستقبل، دلالات جديدة. تحدث بليخانوف كثيراً عن "الانتلجنسيا" ـ المثقفون في أشكالهم المختلفة، بينما سيتحدث علماء الاجتماع الماركسيون، لاحقاً، عن "الياقات الزرقاء" و"الياقات البيضاء"، مشيرين إلى العمال ـ المهندسين، أو العمال الذين يتميّزون بمهارات تقنية علمية.

بعد أن لامس بعض أفكار ماركس من وجهة نظر مستقبلية، إن صح القول، أخضع بليخانوف البلشفية، أي الحزب الشيوعي الروسي في شكله اللينيني، إلى نقد شديد: فسّر صعود البلشفية، التي ولدت عام 1903، بتخلّف البروليتاريا الروسية، وكثرة العناصر اللاطبقية ـ أي الرعاع بلغة أخرى ـ وصولاً إلى ما يدعوه بـ "البروليتاريا الجائعة المتوحشة"، بلغة باكونين، التي "لا تعرف حتى مبادئ الاشتراكية العلمية". تضع هذه الصفات في البروليتاريا الروسية استعداداً كبيراً للامتثال والطاعة العمياء وتقديس الزعيم، وتحولها إلى "بيروقراطيين حزبيين أسوأ من الموظفين القيصريين" وتدفعها إلى العنف المتطرّف الذي يتاخم الإرهاب. وصل بليخانوف، وهو ينقد

البلشفية، إلى أربع نتائج أساسية: إن وصول البلشفية إلى السلطة سيؤدي إلى تخلّف روسيا لا إلى تقدمها، وأن التجربة الاشتراكية التي اخترعها لينين مصيرها الفشل الحتمي، وأنها ستنتج تناقضات في المجتمع الروسي أكثر مأساوية من تناقضات المجتمع الرأسمالي، وأن ديكتاتورية البروليتاريا على الطريقة اللينينة تفضي إلى ديكتاتورية الحزب الواحد، التي هي ديكتاتورية قائدة لا غير. لن تكون الماركسية البلشفية، والحال هذه، إلا شكلاً بائساً ومتخلفاً من الماركسية، لن يسعف البروليتاريا الغربية في شيء، بل سيؤثر سلباً على مسارها.

تتعيّن البلشفية، إذن، محصلة لتمازج عناصر سلبية ثلاثة: البروليتاريا الرثة أو حثالة البروليتاريا، بلغة بليخانوف، وتقاليد العنف الثوري في أكثر أشكالها تطرفاً وعماء، وماركسية بدائية فجة، تخدم أغراض لينين وتسيء إلى الاشتراكية إساءة قاتلة. والنتيجة المرتقبة سلسلة من الأزمات، القابلة للحصار، وصولاً إلى الأزمة الأيديولوجية التي تعني "تحلّل السلطة البلشفية من داخلها" وسقوط المشروع الاشتراكي، الذي سيخلّف آثاراً مأساوية على الحركة الاشتراكية في العالم كله.

وعلى الرغم من هجوم بليخانوف الكاسح على لينين، واتهامه بالتسلّط والاستبداد بالرأي والإيمانية المطلقة والتشجيع على العنف والعنف اللغوي الذي يتجاوز الأصول والفصل بين السياسة والأخلاق...، فإن وراء هذه النعوت جميعاً إعجاباً مضمراً, أو إعجاباً مضطرباً هو مزيج من الرفض والحسد، كما لو كان بليخانوف يثأر لنفسه أو يصفي حساباً مع قائد نوعي، اختلف معه وهمّشه في آن. ولهذا يطلق كمّاً هائلاً من النعوت السلبية على لينين، تتضمن البذاءة والتهوّر ومحدودية الثقافة، ليعود في النهاية ويسأل:"إذن فمن هو لينين؟ هو روبسبير القرن العشرين. ولكن إذا كان الأخير قطع رؤوس عدة مئات من الأبرياء فلينين قطع رؤوس الملايين.". يُختصر السلب كله إلى العنف، ويختصر لينين إلى روبيسير، أحد قادة الثورة الفرنسية، التي هي أعظم ثورة في التاريخ الحديث. وحين يقوّم بليخانوف شخصية تروتسكي التي ينظر إليها باحتقار كبير، يعود ويثني بشكل غير مباشر على شخصية لينين: فقد كان الأخير محقاً في تقويمه لتروتسكي، وهو "أستاذ ماهر بقدرته على تجميع كل من يرغب تحت رايته"، إلى أن يقول: "إن لينين ـ زعيم البلاشفة ـ لم يكن أبداً ليوافق على أن يكون زعيم أية مجموعة أخرى. أما بالنسبة لتروتسكي فأهم شيء لديه هو أن يكون زعيماً دون النظر إلى طبيعة الحزب الذي يريد أن يكون زعيماً عليه".

تحمل الجملة القائلة: "إن البلشفي لينين يرفض أن يكون زعيماً لأي حزب غير بلشفي". دلالات كثيرة: قاتل لينين من أجل قضية الاشتراكية مدفوعاً بإيمانية مطلقة، تضع القضية فوق الذات والغاية فوق الوسيلة والفكرة فوق العناصر المستخدمة في الدفاع عنها. تنسحب، عندها، تعابير التطرف والعنف والإرهاب لصالح فكرة : "الأنا الرسولية" التي تخوض قتالاً ضارياً من أجل تحقيق خير إنساني، أو "الأنا الرومانسية الهائلة"، التي تحلم بتغيير العالم. وواقع الأمر أن هذه "الأنا" لا تتآلف كثيراً مع "حثالة البروليتاريا"، إضافة إلى أن التسلح بـ "الحثالة" لا يمكن أن يحقق ثورة، هي الأكبر والأكثر طموحاً في القرن العشرين. ولم يكن بإمكان الاتحاد السوفيتي، رغم بيروقراطيته الكاسحة، أن يلعب دوره التحريضي الهائل، ولا أن ينجز ما أنجزه في مجالات كثيرة، لو كان حزبه القائد مجرد "بروليتاريا رثة" لا تحسن القراءة والكتابة ولا تعرف مبادئ "الاشتراكية العلمية". أكثر من ذلك أن سقوط الاتحاد السوفيتي لا يفسّر فقط بـ "الأزمة الأيديولوجية"، وكانت قائمة على أية حال ، بل يحتاج أيضاً إلى التوقف أمام ذلك ا لحصار

الرأسمالي الهائل، الذي بدأ مع ولادة ثورة أكتوبر ولم ينته إلا بسقوط الاتحاد السوفييتي، وجعْل من روسيا "قلعة محاصرة" بشكل مستمر.

اتكأ بليخانوف في "وصيته" على فكرتين تقول الأول: تفتقر روسيا إلى الشروط الموضوعية التي يحتاجها بناء الاشتراكية، وتقول الثانية أن الوصول إلى الحقيقة الأخيرة أمر مستحيل. غير أن الصحة النسبية للفكرتين لا تمنع من طرح سؤالين: إلى أي مدى يستطيع مفكر أخلاقي كبير مثل بليخانوف أن يكون نزيهاً وموضوعياً في أحكامه؟ وما هي حدود التداخل بين الأفكار الكبيرة وطبائع المفكرين؟ فهناك ماركسية لينين، وماركسية بليخانوف، وثالثة خاصة بتروتسكي، ورابعة لدى غرامشي، وخامسة عند آلتوسير... وماوتسي تونغ وجيفارا والساندينيين... ما هي ماركسية ماركس في هذه الماركسيات جميعاً، ومن هو الطرف الذي يمتلك الحقيقة أكثر من غيره؟ كان بليخانوف محقاً عندما قال: "حاولت في البداية العثور على الحقيقة النهائية، ولكن لحسن الحظ سرعان ما أدركت أنها غير موجود، ولا يمكن أن تكون موجودة". وإذا كانت الحقيقة النهائية غير موجودة ـ تحدث لينين عن نسبية الحقيقة ـ فما هي نسبة الحقيقة النهائية في تقويم بليخانوف للثورة البلشفية؟ يتضمن السؤال شيئاً من المأساة، أو مأساة بصيغة الجمع.

الماركسية : من فلسفة الثورة إلى أيديولوجيا السلطة

إذا كانت الشيوعية مشروعاً إنسانياً، لايحتمل التقديس، فإنّ على من يسائِلها أن يتوقف أمام أخطائها ونواقصها وجرائمها، وألاّ يفصل، بين النظرية والتطبيق، فالماركسية تعريفاً جملة مساهمات نظرية متواترة، تقول بأولوية الممارسة على النظرية، وبأنّ الممارسة هي معيار الحقيقة• ولعلّ أولوية الممارسة على النظرية هو ما يجعل الماركسية، من حيث هي فلسفة دنيوية، في أزمة مفتوحة، دون القول، على الإطلاق، أنّ انهيار الاتحاد السوفيتي أزمة بين أزمات أخرى• فقد هُزمت الشيوعية هزيمة كاسحة، ولقد هزمت الشيوعية ولم تنتهِ، لكنها، بالتأكيد، لن تعود كما كانت• ومهما يكن شكل عودتها، فإنّ العودة المفترضة لن تفسّر "بأفكار ماركس وانجلس ولينين"، بل بفكرة التحرّر التي حايثت الماركسية، وباستمرارية الاضطهاد في العالم، الذي تزايد بعد "سقوط جدار برلين"• ولعلّ مبدأ التحرّر، وهو نزوع إنساني لا ينتهي، هو الذي يفرض قراءة التجربة الشيوعية من وجهة نظر التحرّر (التحرّر من الجوع والقمع والجهل واستبداد الحاجات)، وهو يقضي، اليوم، بقراءة تاريخها من وجهة نظر جميع المحاولات النظرية ـ العملية، التي تطلّعت، وتتطلّع، وستتطلّع إلى مجتمع يضمن للإنسان قيمته وكرامته ورغباته، أو أجزاء منها•

هل أقدمت الحركة الشيوعية، بعد توطّد النموذج الستاليني في الاتحاد السوفيتي وخارجه، على قراءة متحرّرة للنظرية، وهل رأت في الممارسة معياراً للحقيقة (والكلمتان على أيّة حال يعوزهما التحديد)، وهل اعتقدت فعلاً بأولوية الممارسة على النظرية؟ لم تقم الحركة الشيوعية، بشكلها الرسمي بهذا، ولا بما هو قريب منه• فقد أنجزت اختزالين متكاملين: رأت في كتابات ماركس نظرية منجزة، ناسية أنّ هذا الأخير ترك أفكاراً ناقصة، أو عامة، في أكثر من مجال، مثل تصوّراته عن نظرية الدولة والحزب الثوري والنظام الشيوعي،•••، ثم عادت واختصرت هذه النظرية إلى جملة مقوّلات تبسيطية لا تنقصها العمومية• واكتملت الدائرة حين أُضيفت اللينينية إلى الماركسية، منتهية إلى نظرية كاملة مغلقة، تطال المجالات جميعاً، بما فيها الأدب والفن واللغة وحرب الغُّوار و"الطريق غير الرأسمالي" ••• صيّرهذان الاختزالان الماركسيّة إلى معتقد لا ينقصه التقديس، لا يقبل بصراع النزوعات ولا بنسبية المعرفة، وهما مقولتان قال بهما لينين، ولا يتأمّل التمازج بين "الماركسية العالِمة" والحسّ الشعبي العام، وهو ما التفت إليه غرامشي، الذي مات في سجون الفاشية الإيطالية ولم يعترف الستالينيون بجهده الفكري المتميّز• انتهت النظرية إلى معتقد ديني، وواجه المدافعون عنه خصومهم بشعار ديني عنوانه: التحريفية، التي هي نظير "الهرطقة"، في لاهوت مسيحية القرون الوسطى، ونظير "الخروج على الجماعة"، في التصوّرات الإسلامية المتزمّتة• وواقع الأمر أنّ ما دعي بـ "الماركسية ـ اللينينية" لم يكن إلاّ أيديولوجيا سلطوية، دورها التبرير والتسويغ والبرهنة عن شرعية "الحزب القائد"• ليس الأمر بعيداً عن الاستعمال السلطوي للدين في الزمن العربي الذي نعيش• فمثلما أنّ الأيديولوجيا الدينية، الموزّعة اجتماعياً بقنوات بمدرسية ـ إعلامية سلطوية، لا تفسّر إلاّ بسلطة سياسية، تديّن السياسة وتسيّس الدين، وتشتق من الطرفين شرعية غائبة، فإنّ أدلجة الماركسية، أي اختزالها وتشويهها وإعادة توظيفها، لا تفسّر إلاّ بقيادة شيوعية، تساوي بين مصالحها الذاتية والشعارات النظرية، أو تساوي، في أحسن الأحوال، بين منظورها التسلطي و"الحقيقة النظرية"•

ليس خلع النظرية عن الحياة إلاّ تبريك "نظرية واحدة"، تبارك "الواحد" وتعطيه شرعية، وتختصر المجموع المتنوّع المتعدّد والمتغيّر إلى "واحد"، يَنهى عن الحركة• هكذا يُختصر المجتمع إلى الحزب والحزب إلى لجنته المركزية والأخيرة إلى "السكرتير العام"، الذي يهندس الأرواح جميعاً• والمسألة البسيطة، التي لا يمارى فيها أحد أنّ سلطة الحياة تجهز على حياة السلطة، بعد حين، وتجهز أكثر على من يتوهّم أنّه قادر على التحكّم بالحياة• ولعلّ هذا الوهم، الذي وضع خلفه طويلاً النظرية ومستجدات الحياة، هو الذي جعل النظام السوفيتي يتداعى وحده، دون ثورة مضادة أو تدخل خارجي•

انطوى اعتناق مبدأ "الواحد"، الذي اختُصرت فيه إرادة جماعية، على تراتبية اجتماعية ــ حزبية صارمة، إذ الحزبي يعلو على غير الحزبي، وإذ الحزبي "الأصيل" يقف فوق غيره• برّرت هذه التراتبية الصارمة ذاتها بشعار سلطوي هو "المركزية الديمقراطية" ناطقة بأمرين: استمرارها رغم تبدّل الأزمنة، قبل الخطر النازي وبعد زواله، ونفيها الدؤوب لـ "الديمقراطية المركزية"، التي تستطيع وحدها الاعتراف بمناضلين أحرار يتطلّعون إلى مجتمع حر• تتجلّى الممارسة السلطوية المغلقة في توليد آليات قمعية ثابتة، لا تكترث بالسياق، أو تخترع، سلطوياً، "أهدافاً خطيرة الشأن"، ينبغي إنجازها• والواضح، في هذا، بعدان غريبان عن التصوّر الماركسي، أولهما: تحويل السياسة، وهي أمر مجتمعي، إلى "طقس ديني" من اختصاص "أصحاب الشأن"، أو"احتكار نخبوي"، يمارسه الحزب باسم المجتمع، ويمارسه "السكرتير العام" باسم الحزب• والبعد الثاني، وهو منقطع عن الحداثة والأزمنة الحديثة، هو إلغاء السياسة• مفارقة مؤسية أن تأتي الشيوعية من السياسة، أي الحوار المجتمعي من أجل بديل اجتماعي، وأن تقوم الشيوعية بإلغاء السياسة، مرتدة إلى زمن ما قبل ــ حداثي، كان الحاكم فيه وسيطاً بين الأرض والسماء، وكان فيه ما ينسبه إلى البشر والإله في آن•

كيف أنجزت الشيوعية ما أنجزته، وهو نوعي ومبدع وكبيرالثراء، في فترة محدّدة، رغم ممارساتها، التي تلغي المجتمع بالحزب، وتلغي المناضل الحزبي بأقانيم"المركزية الديمقراطية"؟ ليس هناك جواب أخير، وإن كان في الجواب غير الأخير بعض الإجابة• فقد اطمأن الشيوعيون إلى "الإيمانية النبيلة"، التي تقنع المناضل أن يقاتل من أجل حريّة قادمة، يفتقر إليها في حزبه، مؤمناً بـ "وعي الضرورة" مدخلاً إلى "مملكة الحريّة"• بل يمكن الحديث عن نمط شيوعي من "العبودية الطوعية" قوامها أنّ الحزب ضرورة حياتية للحزبي، وأنّ على الأخير أن ينفّذ جميع القرارات الحزبية، اقتنع بها أو لم يقتنع، ألحقت به خيراً أو سوءاً، إلى تخوم الإهانة• مثالان محدودان يصوّران ذلك، أولهما يخصّ الفيلسوف الهنغاري جورج لوكاتش، الذي ندّد بكتابه الشهير "نظرية الرواية" ــ 1915 ــ حين أصبح شيوعياً بعد عامين، على اعتبار أنّ الكتاب إظلامي ولا تقبل به الماركسية، وعاد بعد عشر سنوات ليقوم بنقد ذاتي موسّع، بعد كتابة "التاريخ والوعي الطبقي"، واستأنف نقده الذاتي بعد 1956 ، ••• أما المثال الثاني فيحيل على اللبناني فرج الله الحلو، الذي ألزمه حزبه، ذات مرّة، (الحزب الشيوعي السوري آنذاك) بأن يكتب رسالة موجهة إلى قيادة الحزب، يذكر فيه أخطاءه وتجاوزاته وعدم قدراته على التماس الصواب• ولعلّ هذه "العبودية الطوعية"، التي تتضمن مستوى عالياً من النبل والتضحية بالذات، هي التي أقنعته بالذهاب إلى دمشق في فترة غير ملائمة على الإطلاق (فترة الوحدة المصرية ــ السورية 1959 ــ 1961)، حيث لقي مصرعه•

اعتقدت "الشيوعية التاريخية" أنّها تمثّل تجاوزاً جذرياً لكل ما هو برجوازي، في المستويات جميعها• كان الأمر صحيحاً، على المستوى الشكلاني، وغير صحيح على مستوى الفعل والممارسة• فقد جاءت الماركسية، التي أرادت أن تكون فلسفة تحويل العالم، محصّلة للفكر البرجوازي في أكثر أشكاله تطوّراً (هيجل، سبينوزا، فيورباخ،•••) وانقلبت إلى تعاليم مدرسية فقيرة (المادية الجدلية)، ومن تاريخ الحركة العمالية، التي التفت إليها ماركس وانطلق من أوضاعها، في مجتمع أوروبي مدني عرف شكلاً، ولو ناقصاً، من الديمقراطية، وعرف أولاً "حقوق الإنسان" وكل ما جاءت به الثورة الفرنسية• تقهقرت الشيوعية، رغم الحديث عن "الديمقراطية الشعبية"، عن المعطى البرجوازي الذي أرادت تجاوزه، متحوّلة إلى دول يحكم فيها "البوليس" أكثر مما تحكم فيها الطبقة العاملة• لا غرابة أن يعود كثير من الفلاسفة الماركسيين، بعد فترة خورشوف، في منتصف خمسينات وستينات القرن الماضي، إلى "فلسفة الاغتراب"، وهي وجه من وجوه الفلسفة البرجوازية، تدافع عن "الفرد المغترب"، قبل أن تتهم شروطه الاجتماعية• ولا غرابة أيضاً ألاّ تتجدّد الماركسية إلاّ من خارج الأحزاب الرسمية مكوّنة، في النهاية، ما أخذ صفة "الماركسية الغربية"، التي كان فيها مواقع لبعض العقول الأكثر إبداعاً في القرن العشرين: لوكاش الشاب، كارل كورش، غرامشي، فالتر بنيامين، إرنست بلوخ، هنري لوففر، وصولاً إلى الفرنسي: آلتوسير•

نخلص، اتكاء على ما سبق، إلى نقطتين أساسيتين على الأقل، تقول الأولى: انطلقت الماركسية من الحداثة الأوروبية، وأرادت الشيوعية التاريخية أن تنتقل، في مشروع اجتماعي غير مسبوق، من الحداثة إلى ما بعد ــ الحداثة، أو من الرأسمالية إلى الاشتراكية، وانتهت، بسبب "الأحادية" المتعددة المستويات، إلى ما قبل ــ الحداثة• وتقول الثانية: لم تهزم الرأسمالية الاشتراكية ، فالعدل كان ولا يزال حلم الملايين، بل هزمت الديمقراطية الديكتاتورية• تتراءى بين النقطتين فكرة ثالثة تقول: لا تستطيع الأدوات البوليسية أن تحلّ ما تحلّه السياسة، التي هي أساس وحدة المجتمع وتطوّره، إلاّ إذا أرادت أن تدفن المجتمع وتخرجه من التاريخ•

الشيوعية العربية ومحاكاة النموذج

ما أثر كل هذا على ما دعي ذات مرّة بـ "الحركة الشيوعية العربية" ؟ يستدعي الجواب مقدّمة أساسية، هي: أخذ نمط الوجود الستاليني شكلاً كونياً، مؤكّداً الستالينية منهجاً، في النظر والعمل، للأحزاب الشيوعية كلّها، مع استثناءات قليلة، ربما (الحزب الشيوعي الإيطالي)• اندرجت الأحزاب الشيوعية العربية، بشكل أو بآخر، في الستالينية السوفيتية، مطمئنة إلى"الأممية البروليتارية"، التي رأت في "البروليتاريا العربية" طليعة لحزب الطبقة العاملة، الذي هو طليعة المجتمع• كان على هذه "الأممية" المتفائلة أن تقيس مجتمعاً عربياً، لم يتحوّل بعد إلى مجتمع بالمعنى الحديث، بمعايير مجتمعات "كونية" مغايرة له، اعتماداً على التجريد والكليّات، أو على الكليّات المجرّدة• قضى التنميط المتاح بـ "اختراع" الطبقة العاملة، وباختراع ما يواجهها، أي "البرجوازية الرجعية"، وصولاً إلى "صراع طبقي" بين طبقتين لا وجود لهما• وبدلاً عن الحديث عن التحرر الوطني، أو تأمل التحرّر الاجتماعي الذي هو شرط له، غدت "الثورة الاشتراكية" هدفاً، ينجز التحرّرين معاً• لا يمس النقد المناضلين البسطاء، الذين اعتنقوا، مثل غيرهم، "العبودية الطوعية"، إنّما يمسّ "عقلية ستالينية قائدة"، زاد من ستالينيتها، أحياناً، إطلاقية شرقية، تخلط بين الكلمات والمواضيع• ومما زاد الأمر تعقيداً تزامن صعود النزوع العربي التحرّري وعلوّ صورة الاتحاد السوفييتي، بعد الحرب العالمية الثانية ــ 1939 ــ 1945، ووقوف الأخير إلى جانب مصر إبّان الاعتداء الثلاثي على مصر ــ 1956 ــ• خلط الشيوعيون بين الحس الشعبي العام، المتطلع إلى الاستقلال الوطني، وتقبّل الأفكار الشيوعية، وبين تقدير الموقف السوفييتي والانجذاب إلى "الماركسية ــ اللينينية"• ولعلّ هذا الخلط هو ما صيّر "الحركة الشيوعية العربية"، في فترة ازدهارها المفترض ــ خمسينات وستينات القرن الماضي ــ "حركة شعبوية"، هائلة الحجم وهشّة الأسس•

رأى الشيوعيون العرب، اتكاء على شعار "الثورة الاشتراكية"، في الديمقراطية مصطلحاً برجوازياً، واعتبروا القومية هاجساً برجوازياً آخر، وأدرجوا القضية الفلسطينية في أفق الصراع بين "التقدّم" و"الرجعية" بلغة معينة، وبين "الاشتراكية"، و"الرأسمالية" بلغة أخرى• اعتقدوا، في الحالات جميعاً، أنّهم يشكّلون مرحلة تحررية جديدة، لا تحتاج إلى "الطور البرجوازي"، الذي سبقها، طالما أنّ الانتساب إلى الاتحاد السوفييتي انتساب إلى التحرّر، وأنّ الانتساب إلى التحرّر انتساب إلى الاتحاد السوفييتي• وهذه الإيمانية المطمئنة إلى زمن ذهبي قادم، هي في أساس تهميش الشيوعيين لموروثهم الثقافي، وعدم التفاتهم إلى محاورة التيارات السياسية الأخرى، القريبة منهم، كما البعيدة عنهم، كما لو كانوا يمتلكون الحقيقة كلّها، ولا حاجة بهم إلى الحوار مع أطراف ضنّت عليها "الحتمية التاريخية" بامتلاك أبعاد من الحقيقة المفترضة• كان من المفترض، منطقياً، أن تدرج الأحزاب الشيوعية ذاتها في التيار التنويري العربي الذي سبقها، أن تنقده وتطوّره وتستكمله، وأن تدرك أنّ المجتمع العربي، الذي لم يصبح مجتمعاً بعد، بحاجة إلى "ثورة ثقافية" قبل غيرها• بيد أنّ الشيوعيين، وانطلاقاً من كليّات "الأممية البروليتارية"، رؤوا في التنوير إرثاً برجوازياً، فقطعوا معه وتقهقروا عنه، في طور، وتهمّشوا مع تهميشه، في طور لاحق•

تميّز "عصر التنوير"، الذي لم يُستكمل وأجهض إنجازه المجزوء ،بوجوه إيجابية متعددة: الاختلاف والتنوّع والحوار داخل التنوّع المختلف، والتعامل مع قضايا محددة بعيدة عن التعميم، كأن يعالج قاسم أمين قضية المرأة، وأن يؤكّد سلامة موسى، وليس بلا شطط، أهمية العلم، وأن يتأمّل لطفي السيد وطه حسين قضايا التعليم والجامعة، وأن يقرأ محمد عبده النص الدين وينهى عن التكفير، وأن يضع الكواكبي كتابه العظيم "طبائع الاستبداد"، رغم تناقضاته المتعددة• رأى هؤلاء وغيرهم إلى قضايا اجتماعية مشخصة، ورؤوا حلولها المشخصة في سيرورة اجتماعية مفتوحة، لا تقبل بالانغلاق• وسواء نظر البعض إلى المستقبل والتفت غيره إلى الماضي، فقد كان نقد المشخص منهجاً تنويرياً بامتياز• استبدل الشيوعيون بالنقد الأيديولوجيا وبالمجزوء الكلّي، وبالزمن المفتوح زمناً مغلقاً، هو: زمن الثورية البروليتارية• كانوا ينظرون إلي الهدف ولا يحدّدون الوسائل المفضية إليه، بل كانوا، وانطلاقاً من التفاؤل التاريخي، يتوقعون أن تأتي "الاشتراكية" إليهم، دون أن يذهبوا إليها• والمأساوي، في هذا كلّه، شعارهم الدائم: "لا ثورة بلا نظرية ثورية"، مكتفين بالشعار ومحوّلين "النظرية العلمية" إلى وعد مهزوم، مبدّدين تضحيات كثيرة نبيلة في مراهنات وهمية• لا غرابة أن لا تترك هذه الأحزاب "تراثاً نظرياً" جديراً بالقراءة، وما تُرك قام به مثقفون "على الهامش" بقيوا في أحزابهم، حال اللبناني مهدي عامل وحسين مروّة وغيرهما، أو طُردوا منها، حال السوري إلياس مرقص، وغيره• ولا غرابة أيضاً ألا تختلف "الممارسة الداخلية" في هذه الأحزاب، عن ممارسات السلطات التقليدية، التي التحقت هذه الأحزاب ببعضها، أكثر من مرّة• بل أنّ التصوّر التقليدي للسياسة هو ما "سهّل" التحاق بعض الأحزاب الشيوعية بسلطات ألغت الشروط الاجتماعية اللازمة للسياسة والممارسات الحزبية•

ماذا يستطيع الشيوعيون العرب، أو ما تبقّى منهم، بشكل أدق، أن يفعل اليوم؟ الجواب عندهم لا عند غيرهم، وإنْ كان الباحث عن معنى التحرّر يستطيع، وبكثير من الحذر والحيطة، أن يقترح بعض الأفكار: يحيل أولها على إعادة الاعتبار إلى مفهوم الحزب الذي قوّضته، غالباً، الممارسات التقليدية، الملتبسة بتقليدية الممارسات السلطوية المسيطرة• فقد بدا الحزب، أحياناً، لوناً من الألوان الحزبية التي تحتاجها سوق سياسية، ترضي "مستهلكاً" صادقاً، يريد أن يحظى بـ " هويّة اليسار"، مثلما بدا، حين بلغ الانهيار قراره، ملكية صغيرة خاصة ، قابلة للمقايضة، أو تجاره تستجلب منافع متواضعة• وقد ظهر في حالات معيّنة، مجرّد ذريعة غريبة، دورها منع قيام أي تنظيم حقيقي بحجة وجود "تنظيم جاهز" شكلاني بالضرورة• تلغي هذه المظاهر جميعاً معنى "الحزب الثوري"، الذي يدافع عن حاجات الناس اليومية المشخصة، وينظّم الحوار حولها، اعتماداً على برنامج مستقبلي، يرضي حاجات الناس لا حاجات السلطة الحاكمة• وبداهة، فإنّ تجربة "الواحد" الخائبة تقضي بتعددية في النظر والاقتراح والمبادرة، بما يمنع التراتبية القمعية ويجعل من جميع الأعضاء، بمعنى ما، قادة ومقادين في آن (حلم غرامشي) كما لو أنّ مرجعهم الموحّد بينهم هو البديل المستقبلي الأكثر• وواقع الأمر أنّ وظيفة الفكر الشيوعي، أو الفكر الجذري النقدي، هو نقد السلطة وتنظيم النقد وتطويره كي يصبح قوّة مادية فاعلة، فلا وجود لحزب، بالمعنى غير الشكلاني، إلاّ في آثاره الملموسة اجتماعياً، وفي اتساقه الأخلاقي، نظراً وعملاً، الذي يفصله عن غيره، وفي شغفه المتجدّدة لخلق مثال اجتماعي ـ أخلاقي ينبغي الوصول إليه• بل يمكن القول إنّ دور الفكر الشيوعي التأسيس لنقد اجتماعي مفتوح، ينقض السلطة من ناحية، ولا يهجس بالوصول إليها، من ناحية ثانية• ولعلّ هذا المنظور، الذي يرى إلى تغيّر كيفي لا يكف عن التجدّد، هو في

أساس ضرورة الفصل بين الحزب والدولة،الذي ألغته الممارسة الستالينية، وضرورة تحرير "القيادة" من نزوعات"الملكية الخاصة"•

تستلزم إعادة الاعتبار إلى الحزب، منطقياً، إعادة الاعتبار إلى مفهوم السياسة• فلا حزب من دون فضاء سياسي مجتمعي يتحرّك فيه أفراد يميّزون بين الصواب والخطأ، وينتسبون إلى بدائل سياسية مختلفة• ومطلب كهذا يحتاج إلى عنصرين أساسيين: نقد التصوّر السلطوي للسياسة، من حيث هي فعل نخبوي متعال يتحّدث باسم المجتمع ولا يعترف بحقوقه، والعمل على كسر الاحتكار السلطوي للعمل السياسي، الذي هو عمل تلقيني ــ تأديبي، ينوس بين الأجهزة المدرسية والأجهزة البوليسية• مع ذلك، فإنّ الأمر الأكثر صعوبة وتعقيداً هو الصادر عن ممارسة سلطوية قمعية طويلة الأمد، تجانس المجتمع، على مستوى الوعي والثقافة، أو تنزل به إفقاراً ثقافياً شاملاً، يلغي الفرد واستقلاله الذاتي ويدمج الأفراد، الذين لا "ذاتية" لهم، في مجموع زائف الوعي، مرجعه "الجماعة"، التي ينطق باسمها مرجع وحيد، مرجعه "الماضي" الذي عليه أن يكفّر المستقبل قبل وصوله• وما يدعى بـ "العشائرية"، أو "الجهوية"، أو"الطائفية" تجسيد، بأشكال مختلفة، لهذه "الجماعة"، التي تستبدل بالسياسة التعصّب، وبالحوار الجماعي أحادية في النظر وبالمجتمع الجماعة وبالوطن الأخوة الرشيدة• والأمر كلّه أنّه لا سياسة ولا إمكانية للعمل السياسي، من دون ذوات حرّة، قادرة على الرفض والقبول والاقتراح والمبادرة• أما كيفية الانتقال من الجماعة المتجانسة المتراصة، التي لا شكل لها، إلى الأفراد الأحرار الباحثين عن شكل يخصّهم، فأمر يحتاج إلى النظرية وتاريخ الممارسات التحرّرية والمتخيّل الثوري والنهوض الاجتماعي في آن•

اتكاء على السطور السابقة، التي تمسّ الإفقار الثقافي الشامل والجماعة والتعصّب وغياب الذات الجماعية الواعية لمصالحها والشروط الاجتماعي اللازمة لتوليدها، يكون على الشيوعيين، أو على الباحثين عن التحرّر، بشكل أدق، أن يعودوا إلى "بداية برجوازية" غير متوقعة عنوانها: حقوق الإنسان التي تعترف، رغم نواقصها المختلفة، بفرد له حقّ في القول والتعبير والمشاركة والحماية• وبداهة، فإنّ القول بفرد يتمتّع باستقلاله الذاتي، بمعزل عن سلطة الأسرة وسطوة القبيلة وعنف الطائفة واستبدال الدولة، مقدّمة لمجتمع حرّ مستقل ذاتياً بدوره• ويمكن القول، باختصار شديد، إنّ حقوق الفرد لا تنفصل عن حقوق المجتمع، وأن الأخيرة لا تنفصل عن حقوق الشعوب،••• بيد أنّ هذا كلّه، في تفاعلاته المختلفة، لا ينفصل عن مقدّمة ــ أساس، عنوانها: حقوق الفرد التي تقود، في فضاء الفعل السياسي، أو في فضاء التفاعل الاجتماعي، إلى حقوق المواطنة، السياسية والدستورية والاقتصادية والتعليمية والثقافية،•• والحديث عن الفرد الحر، في الشرط العربي الذي نعيش اليوم، لا يحيل على الديمقراطية الغربية أو الليبرالية والليبرالية الجديدة، كما يقال عادة، إنّما يحيل أولاً على معنى الوطن، ذلك أنّ الجماعات العضوية، طائفية، أوغيرها، تلغي الوطن بـ "الجماعة"، بعد أن ألغت بـ "الجماعة" المفرد الحر، الذي يتعرّف بوطنه، ويعرّف وطنه بالحقوق الإنسانية التي يؤمّنها له•

كيف يمكن توليد السياسة في مجتمع عربي لا سياسة فيه؟ تكشف الإجابة، إن كانت صحيحة، عن تقدّم طه حسين على من جاء بعده• ذلك أنّه تأمل هذا السؤال، بعمق كبير،في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، حين كان يحلم باشتقاق المجتمع من مدرسة ديمقراطية، وباشتقاق الدولة من مجتمع حديث أُحسن تعليمه• ولم تكن المدرسة الجديدة عنده، التي تشرف عليها "دولة وطنية ــ أخلاقية"، إلاّ الشرط اللازم لبناء الوعي السياسي• فلا سياسة في "مجتمع أميّ"، ولا سياسيون في مجتمع

يمنع عن أفراده حق الكلام، ولا سياسة في موقع تنوب فيه "الجماعة" عن الأفراد، ولا حداثة إلاّ في مجتمع يعترف بـ "الاستقلال الذاتي" للرجل والمرأة والمثقف والفنان والباحث العلمي والمناضل النقابي• ربط طه حسين بين نهوض المجتمع و"المدرسة الحديثة" ودعا سمير أمين، لاحقاً، إلى ثورة ثقافية، تنقض "العقل الكلي"، الذي يتسلّط فيه الأموات على الأحياء، بعقول متعددة طليقة• والسؤال، في الحالات جميعاً هو : من أين يأتي ذلك "الانبعاث السياسي"، الذي يقنع الفرد بأنّ الدفاع عن مصالحه الذاتية دفاع عن مصالح مجتمعه، وأنّ الدفاع عن المصالح الاجتماعية دفاع عن وطن يحقّق شروط المواطنة؟ يظل "التسييس الاجتماعي" عملاً جماعياً يتسع للمتوقع وغير المتوقع معاً• مع ذلك، فإنّ تأكيد الممارسة السياسية الاجتماعية لا ينفصل عن دلالاتها المتعددة: فالأفراد لا يتكوّنون إلاّ في التفاعل الاجتماعي المتنوّع والحر، الذي يشكّل الفضاء السياسي شرطاً له• إضافة إلى ذلك ، فإنّ الفعل السياسي المجتمعي، أي الحوار العقلاني بين بدائل سياسية مختلفة، هو في أساس ارتقاء المؤسسات الاجتماعية، التي عليها أن تلبي حاجات مجتمع، يرتقي ويتطوّر بارتقاء وتطوّر الممارسات السياسية فيه• ولهذا يكون التاريخ الكيفي للمجتمع محصلة لفاعلية، أو فاعليات، العمل السياسي الدائر فيه، الذي يعيد تأسيس البشر والمؤسسات في آن•

هل تقول السطور السابقة بأنّ أفكار كارل ماركس لا ضرورة لها ؟ تقول بهذا ولا تقول به، لأسباب مختلفة، لا مكان فيها لقول أخير• يعود السبب الأول إلى مفهوم "التحرّر الإنساني"، وهو عملية تاريخية متصاعدة، تسبق "الثورة الاشتراكية" وتخترقها وتتجاوزها معاً• ففي زمن سبق أدمن الشيوعيون العرب على اعتبار القرن العشرين: "عصر التحوّل من الرأسمالية إلى الاشتراكية"، دون أن يلتفتوا إلى "مجتمع عربي"، لم يصبح مجتمعاً بعد، يخترقه إرث طويل من التخلّف• فالباحثون في شؤون الأدب يميّزون، كما نعلم، بين "الواقعية" و"ما قبل الواقعية"، أي يتأمّلون جملة الشروط الثقافية والأدبية والاجتماعية، التي أتاحت تحويل "ما قبل الواقعي" إلى "واقعي"• وعوضاً عن أن يتوقف الشيوعيون أمام المعطى التاريخي المعقّد، الذي يسبق "الاشتراكية"، انطلقوا مباشرة من الشعار الأخير، بعد أن أنجزوا "اختراعين": اختراع الطبقة العاملة العربية، واختراع تساوي أزمنة المجتمعات المختلفة، على اعتبار أنّ الاشتراكية كونية، وأنّ مهام "الطبقة العاملة العالمية" كونية أيضاً• يتمثّل السبب الثاني، وهو لا ينفصل عن الأول بالوضع التاريخي الذي أنتج الماركسية، من حيث هي محصّلة نقدية للفكر البرجوازي الأوروبي، في أكثر أشكاله تقدّماً• غير أنّ الشيوعيين عكفوا على نشر مبادئ الماركسية، "حارقين مراحل نظرية متعددة"، عوضاً عن أن يشتقوا ماركسية خاصة بهم، تصدر عن تطبيق مشخص للمنهج الماركسي على ظواهر عربية مشخصة• بل إنّ هذه "الماركسية المتقشّفة" اكتفت، حتّى منتصف القرن العشرين على الأقل، بكتابين هما: "البيان الشيوعي" لماركس الذي ترجمه خالد بكداش السكرتير العام للحزب الشيوعي السوري، و"أسّس اللينينية" لستالين•انطلقوا، ربما، من سياق كوني مخادع، يساوي إرادة التاريخ بإرادة "الإنسان الجديد"، في انتظار زمن لاحق، يعلن فيه التاريخ أنّه يبارك الذين يفهمون معناه، وأنّه يتقدّم إلى حيث يشاء، لا إلى حيث شاءت له "النظرية الثورية" أن يتقدّم•

يتعيّن السبب الثاني بالحدود الذاتية لإسهام ماركس، الذي لم يقل شيئاً كثيراً عن "بناء الاشتراكية" في "البلدان النامية" أو "غير النامية" من ناحية وترك مواضيع كثيرة لم يتطرّق إليها، من ناحية

ثانية• فلم ينجز مؤسس "الاشتراكية العلمية" تعريفاً لـ "الطبقات الاجتماعية"، ولا نظرية في الدولة والحزب والثوري، ولم يقل شيئاً عن "نمط الانتاج الاشتراكي" الذي أشاعته الأدبيات الأيديولوجية السلطوية• أعطى ماركس ، بالتأكيد، تحليله العلمي النموذجي لنمط الإنتاج الرأسمالي في كتابه الكبير "رأس المال" وطبّق منهجه المادي بشكل خلاّق في كتابه "صراع الطبقات في فرنسا"، الذي اعتبره الأنتروبولوجي الفرنسي الشهير كلود ليفي شتروس نموذجاً علمياً مثالياً، وتحدّث عن معنى التاريخ في كتابه "الثامن عشر من برومير"، المكتوب بأسلوب فلسفي ــ أدبي لا يحاكى••• لكن هذه الإنجازات جميعاً لا تتضمن، ولا يمكنها أن تتضمن، "جواباً ماركسياً" على جميع الظواهر القائمة والمحتملة، إلاّ إذا حُوّلت إلى معتقد ديني، أو تعامل معها وعي ديني يُسقط على النص الماركسي إمكانيات غريبة عنه ••

لم يكن في الشرط التاريخي، الذي ولدت فيه الأحزاب الشيوعية العربية، ما يسمح بقراءة فاعلة للنص الماركسي، ولم يكن في الماركسية، في شكلها "المتقشّف"، ما يسمح بتحليل موضوعي لشروط تحرّر المجتمع العربي• وواقع الأمر أنّ هذه الأحزاب، كما الجماهير المشدودة إليها في فترة محدّدة، كانت تحلم بالتحرّر الاجتماعي الشامل وتكافح من أجله، معتقدّة أنّ الانتساب الشكلي إلى "نظرية ثورية" فعل يفضي إلى التحرّر• ولعلّ فعل التحرّر، الواضح وغير الواضح في آن، هو الذي يزيح الآن "الأحادية النظرية" عن موقعها، ويطالب بمرجع نظري متعدّد العناصر• فإذا كان الهدف المنشود، نظراً وعملاً، هو التحرّر الوطني والاجتماعي، فإنّ في الموروث الكفاحي العربي الحديث، كما في تجارب التحرّر العالمية، ما يقترح مراجع متعددة، ويحوّل الماركسية إلى مرجع بين مراجع أخرى• تضيء الماركسية، والحال هذه، غيرها من المراجع وتستضيء بها، بدءاً من "عصر التنوير" وانتفاضات الجياع ولاهوت التحرير والتجارب الاشتراكية المختلفة وتمرّد الطلبة، بصيغة الجمع• والمقصود بذلك ليس التلفيق وإضافة عنصر غير متجانس إلى آخر غير متجانس بدوره، بل التأمل الجماعي لـ "تاريخ الفعل التحرّري"، مستفيداً من المنهج الماركسي، الذي لا يزال متقدّماً على غيره من المناهج•

يهدف القول بتعددية المراجع إلى أمرين: توسيع مجال التأمّل وأسئلته، والتخلّص من "النزعة الاسمية"، التي تخالطها أشياء من التزمّت والانغلاق• فإذا كانت الفيزياء الحديثة، رغم الجهود المتميزة التي أسهمت في نشوئها، لا تحيل إلى اسم وتنغلق فيه، ولا إلى ثلاثة أسماء وتحتفي بها، فلا ضرورة لتصنيم اسم ماركس أو غيره، وذلك أنّ التحرّر الإنساني يتعرّف بجهود متراكمة، تنتمي إلى عصور مختلفة• وإذا كانت الماركسية "علماً" أو فيها شيء من "العلم"، فلا يجوز "تحنيط" فكر ماركس، صوناً له من العطب، أي "التجديد"، لأنّ كل فكر عظيم يتضمن في علاقاته إمكانيات تجاوزه• بل أنّ في تعقيد وتعددية التجارب الإنسانية الطامحة إلى التحرّر ما يتجاوز أيّة نظرية كانت، ماركسية أو غيرماركسية• أكثرمن ذلك أنّ الوجود الإنساني لا متجانس بطبيعته، وأنّ لا تجانسه بعيد البعد كلّه عن التبسيط، ولا يقبل بالصيغ التبسيطية، حتّى لو استندت إلى جهد نظري واسع، كالجهد الماركسي، الذي أسهم فيه منظّرون لامعون ينتمون إلى مجتمعات مختلفة• والماركسية، في تصوّرها للعالم، لا تقول بالثبات والاستمرارية الراكدة، فهي الفلسفة الوحيدة التي قالت بإمكانية انطفائها الذاتي، انطلاقاً من أولوية الممارسة على النظرية ونسبية المعرفة، ومن إعلانها المستمر عن التناقض الذي يحكم الظواهر الاجتماعية، الذي يعني، في التحديد الأخير، الحركة والتغيّر والانفصال• ولهذا يمكن الحديث عن "ما بعد ــ الماركسية" وهو ما يعني أنّ

ماركسية ماركس ، الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين، قد أصابها شيء، أو أشياء، من "الفوات التاريخي"، بلغة الماركسي ــ القومي السوري الراحل: ياسين الحافظ وربما يقول البعض: إنّ بعث الحركة الشيوعية يقضي بـ "الرجوع" إلى "الماركسية الخالصة"، التي لوّثتها السلطة البيروقراطية• والقول لا معنى له، فهو مشبع بروح "أصولية"، تهمّش الحاضر وتحتفي بالماضي، الذي لا يعود على أيّة حال• وربما يكون أفضل القول : الانطلاق من ماركس، بمعنى محدّد قوامه : تحليل ظواهر الحاضر بالدقة التي حلّل بها ماركس ظواهر زمانه، والاستفادة من المنهج الماركسي في تحليل الظواهر المستجدة• أي تحليلها من وجه نظر نزوعها أو من وجهة نظر تشكّلها المستقبلي• والفرق بين "العودة إلى" و"الانطلاق من" هو الفرق بين الأصوليين والحداثيين، فأحد الطرفين ينظر إلى الماضي (ويتوهّم العودة إليه)، بينما ينظر الآخر إلى المستقبل، ويطرح على الحاضر أسئلة مستقبلية•

يكمن الحفاظ على الماركسية، لمن يريد الحفاظ عليها، في نقدها الجذري، من وجهة نظر ماحاولته وأخطأته في الماضي، ومن وجهة نظر الحاضر الذي استولد مواضيع لم يعرفها ماركس، ولا التلاميذ النجباء المنتسبين إليه• تتعرّف الماركسية، في هذا التحديد، طوراً نظرياً ــ عملياً من أطوار محاولات التحرّر الإنساني الذي لا يرضى، كما دلّل تاريخه، بصيغة أخيرة منجزة• وتتعرّف أيضاً، بسبب منهج ماركس نفسه، كفلسفة مفتوحة غير قابلة للاكتمال، لأنّ "الكمال" هو الموت•

الشيوعية العربية : أطروحات أوليّة

تكاد تبدو الحركة الشيوعية العالمية، في شكلها السابق، جزءاً من الماضي، وتكاد تبدو الحركة الشيوعية العربية، قبل غيرها، جزءاً من حقبة سابقة. وذلك أن هذه الأخيرة ماتت بأقساط مختلفة، قبل أن تصل إلى موتها الأخير. ولأنّ الحاضر يبدو أكثر وضوحاً على ضوء الماضي الذي قاد إليه، فإن تأمل تاريخ الحركة الشيوعية العربية يبدو اليوم أقل تعقيداً. وهذا ما يسمح بتقديم الأطروحات الأربع التالية:

الأطروحة الأولى: مثّلت الماركسية العربية، أو ما دعي بذلك، امتداداً طبيعياً للفكر النهضوي العربي، مثلما جاءت ماركسية ماركس تطويراً للفلسفة الأوروبية الحديثة، أوبعض اتجاهاتها على الأقل. انتسبت هذه الأخيرة، بأشكال لا متكافئة، إلى هيجل وفيورباخ وروسو وسبينوزا، واقترب النهضويون العرب، كل على طريقته، من مونتسكيو وروسو وديكارت وداروِن، الذي أراد ماركس أن يهديه كتابه "رأس المال"، كما يقال. لا يمكن في الحالين الفصل بين الماركسية والحداثة الفكرية البرجوازية ، ولا بين "الماركسية العربية" و"عصر النهضة"، على الرغم من الأقدار المختلفة والفروقات الهائلة. لا غرابة أن يحتل المثقفون العرب دوراً محورياً، لا تنقصه المأساة، في الدعوة إلى نهضة عربية، وأن يحتلوا دوراً أساسياً في ولادة الحركة الشيوعية العربية. اعتقد المثقفون الشيوعيون، بعد ولادة الأحزاب الشيوعية التي أعقبت ثورة أكتوبر 1917، أنهم تجاوزوا ، تاريخياً، عصر النهضة، دون أن يدروا أن إخفاق النهضة العربية المعوّقة المبكر، سيقوّض أيّة محاولة "ثورية" لاحقة، لأن تلك "النهضة" عملت على دخول المجتمعات العربية، أو بعضها، إلى الحضارة الحديثة.

الأطروحة الثانية:أسس الشيوعيون العرب إخفاق مشروعهم، عندما وضعوا مفهوم "المجتمع المدني" جانباً واطمأنوا، أو بعضهم، إلى تصورات مجرّدة، لا ينقصها الاختراع مثل: الصراع الطبقي بين البرجوازية والطبقة العاملة، وذلك في شرط متخلّف يمنع تبلور الطرفين. وزاد الأمر تعقيداً "نمط القيادة الستاليني"، الذي ساوى بين الدفاع عن سياسات الاتحاد السوفييتي والدفاع عن المصالح الوطنية العربية. أنتج هذان الأمران قاموساً أيديولوجياً عقيماً، افتقد إلى المرجعية الخارجية: النضال من أجل الاشتراكية في مجتمعات تكتسحها الأمية والفكر الغيبي، اختزال الأممية إلى دفاع غير مشروط عن الاتحاد السوفييتي، المركزية الديمقراطية التي تعني إلغاء الديمقراطية.

الأطروحة الثالثة: فتح وصول ما يدعى بـ : "دولة الاستقلال الوطني" الباب واسعاً للإجهاز على الحركة الشيوعية العربية، ذلك أن الدولة الوليدة منعت التعددية الحزبية ومنعت، أولاً، الأحزاب الشيوعية. فقبل مجيء هذه السلطات، التي طوّرت الأجهزة الأمنية بشكل غير مسبوق، استطاع الشيوعيون العرب، في زمن السيطرة الاستعمارية، أن يستفيدوا من ضعف الدول وجزئية شرعيتها، وأن يكون لهم، في حالات كثيرة، دور نشر وصحف ومكاتب علنية، ولو بقدر. ومهما تكن أخطاء الحركة الشيوعية العربية، فإن أفولها المبكر لا يفسّر، ولا يمكن أن يفسّر إلا بالقمع الشديد المتواصل الذي وقع عليها.

وزاد الأمر مأساوية "الأيديولوجيا النفعية"، التي ربطت بين "المركز الشيوعي الأول" و "الدول التقدمية"، التي احترفت الإجهاز على الشيوعيين. لقد سارت الحركة الشيوعية العربية نحو موتها، بسبب تحالف الاتحاد السوفيتي مع دول عربية قمعية، من ناحية، وامتثالها إلى مركز شيوعي رأت فيه عنواناً للحق والحقيقة. ولعل هذا التحالف، كما التآمر المأساوي على الذات، هو ما جعل الحركة الشيوعية العربية تسقط قبل سقوط المركز الأول بعقود كثيرة. وعلى الرغم من استهلاك الشيوعيين الشديد لكلمة "الثورة المضادة"، فقد منعهم "الولاء المتفائل" من تحديد موقعها، إلى أن اقتربوا، في حالات معينة، من الانتحار السعيد. وما أن جاءت حرب 1967 حتى كانت "دولة الاستقلال الوطني" قد استهلكت ذاتها واستهلكت معها "الحركة الشعبية" كلها، تاركة "الجماهير"، التي منعت عنها السياسة، مادة طيعة لحركات جماهيرية جديدة، تحارب السياسة قبل أي شيء آخر.

الأطروحة الرابعة: وضع النموذج السوفييتي على لسان النهضويين العرب، في شكلهم الشيوعي، مفردات لا يحتاجون إليها: طبقة ضد طبقة والطبقة العاملة وحلفاؤها... ودعاهم إلى "حزب سياسي جديد"، يمنع السياسة، وأجبرهم على تحالفات قاتلة، وخلق لهم "مكة جديدة" تقدم العلم والأيديولوجيا، ولقنهم كلمات كثيرة مثل التحريفية والارتداد وطريق التطور غير الرأسمالي،... وواقع الأمر أن القول بالنموذج قول بالمحاكاة، وأن محاكاة النموذج وتهميش الحياة استعجال للموت. والآن انتهى النموذج، دون أن يضع هذا نهاية لأحلام المضطهدين بالعدل والديمقراطية والمساواة. ومع أن ماضي الحركة الشيوعية يشكّل علاقة داخلية في أي مشروع شيوعي جديد، فإن على هذا المشروع أن يقرأ تاريخ المضطهدين في العصر الحديث، في اشكاله كلها، كي يصل إلى شيء جديد يقول بأولوية التحرّرالإنساني على غيره، لأن الاشتراكية من دون الحرية لا تعني شيئاً كثيراً.

د• فيصل درّاج

الوصية السياسية أفكار بليخانوف الأخيرة

ترجمة: د. أشرف الصباغ

تقديم

في نهاية عام 1999 قام أستاذ الفيزياء النظرية والرياضية نيقولاى إيفانوفيتش نيجيجورودوف الذي يعمل بجامعة بتسوانا بالكشف عن واحدة من أهم وأخطر الوثائق الخاصة بالثورة البلشفية في روسيا. وتكمن أهمية الوثيقة وخطورتها ليست فقط في الأفكار المطروحة، وإنما أيضا في الشخصية التي طرحت هذه الأفكار في بداية عام 1918، أي في بداية الثورة وبداية التشكيل الجديد الذي سار عليه العالم طوال ما يقرب من قرن كامل على المستويين الاجتماعي والجيوبولوتيكي.

الوثيقة هي الوصية السياسية لأحد أهم الشخصيات البارزة في الحركة الاشتراكية العالمية، وفي الحركة الفكرية الاشتراكية في روسيا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولعل جيورجي فالنتينوفيتش بليخانوف- صاحب الوصية - هو أحد الآباء الروحيين للأفكار الاشتراكية في روسيا، هذا طبعا إن لم يكن على رأسهم، الأمر الذي يعطى هذه الوصية صفة الوثيقة التاريخية الخطيرة، خاصة وأنها قد تضمنت العديد من الأفكار الهامة والمركزة بخصوص ما حدث طوال القرن العشرين، وما يحدث الآن، وما سوف يحدث لسنوات طويلة قادمة.

وإذا كان انهيار الاتحاد السوفيتي يمثل واحدا من أهم أحداث القرن العشرين، بالضبط مثل قيامه. وإذا كان قيامه ببداية الثورة البلشفية عام 1917 قد غير وجه الخريطة السياسية والجيوبوليتيكية للعالم، فهو في المقام الأول قد غير الخريطة الاجتماعية للعالم طوال القرن. وبمجرد انهياره وسقوطه تغيرت الخريطة الاجتماعية والجيوبوليتيكية مرة أخرى وبشكل حاد تماما مثلما حدث في بداية القرن. فهذه الوثيقة الهامة في إطار ما يطرح اليوم من أفكار حول انهيار التجربة السوفيتية والعولمة وتلاشى الأيديولوجيا وصراع الحضارات تمثل وجهة نظر هامة للغاية.

الغريب أن مكتشف الوثيقة لم يقم إلى الآن بتسليم الجزء الأخير من الوثيقة إلى الحكومة الروسية (وذلك بناء على عبارة بليخانوف الأخيرة أو وصيته: "في النهاية أقدم بعض الأسطر التي يجب ألا تنشر، وإنما تنقل إلى السلطة الديمقراطية القادمة في روسيا") نظرا لأنه يرى أن شرط بليخانوف لا ينطبق عليها!

د. أشرف الصباغ

الوصية السياسية أفكار بليخانوف الأخيرة

(انهيار التجربة السوفيتية)

أنا جيورجى فالنتينوفيتش بليخانوف، الذي أعطى الحركة الثورية في روسيا وأوروبا كل حياته الواعية، والذي يعتبر ليس فقط شاهدا ومشاركا، بل وبرأي الكثيرين، مذنبا مباشرا في أضخم الأحداث مأساوية في الوطن، لا أستطيع أن أرحل من الحياة من دون أن أعلن عن علاقتي بهذه الأحداث. فبعد أن قام البلاشفة بحل المجلس التأسيسي، صُوِّبَتْ نحوى العديد من الاتهامات المريرة من جميع الجهات. وعلى الرغم من أنني أرى أنه لا داعي للتبرير، ففي كل الأحوال ينبغي الإشارة إلى أن ذنبي ليس هكذا كبيرا كما يعتقد ف. تشيرنوف وأنصاره (1) . وكما لا يجب إدانة بروميثيوس لأن الناس يسيئون استخدام النار، لا يجب أيضا إدانتي لأن لينين يستخدم أفكاري بشكل ذكي من أجل تأكيد صحة استنتاجاته الخاطئة وتصرفاته السيئة.

* * *

من أجل أن أبدأ بطرح أفكاري الأخيرة، أرى أنه من الضروري أن أسبقها بملاحظتين:

الأولى: لقد استخدمتُ في مؤلفاتي، وكقاعدة، كلمة "نحن" لأنني كنتُ أكتب دوما باسم رفاقي. ولكن في هذه الوثيقة يجب أن يُكتَب كل شيء بضمير المتكلم الفرد "أنا"، إذ أن مسؤولية أفكاري التمردية يجب أن تقع على عاتقي وحدي أمام التاريخ، وليس على عاتق أي أحد آخر.

الثانية: لقد رفضتُ النضال إلى جوار البلاشفة- أسباب الرفض ستأتي لاحقا- وبالتالي لا يجب نشر وصيتي طوال وجودهم في السلطة.

عدة كلمات عن نفسي

إن طريق الإنسان ونشاطاته وتصرفاته تتحدد عن طريق الأهداف الموضوعة، وتتلون بالصفات الأصيلة والمُكتَسَبَة. أما عن صفاتي المُكتَسَبَة، فلا معنى للتوقف عندها-هي واضحة من مؤلفاتي. وأما عن طابعي، فينبغي قول عدة كلمات. طابعي صعب ومتناقض، وهو الأمر الذي عانى منه في كثير من الأحيان أقربائي وأصدقائي. ورثتُ عن أمي الإحساس العالي بالعدل، والثقافة، وحب الطبيعة، والتواضع، والخجل. وفي الحقيقة، فسرعان ما تخلَّصتُ من الصفة الأخيرة حينما كنتُ طالبا في السنوات الأولى بكلية فورونيج الحربية-شكرا لنيقولاي;(2) . وعن الأب-الصلابة وقوة الإرادة، والقدرة على العمل، والشعور بالكرامة، والواجب والمسؤولية، والحسم والتصميم. وبسبب صعوبة طابعي تحديدا كثيرا ما كنتُ أُبدِى حدة في مناقشاتي. ورغم اعترافي بذلك أود على أية حال تكرار أنني كنتُ أحترم الخصم دائما، ولم أكن أخرج عن أطر اللياقة الأدبية، ولم أكن أنحدر، مثل لينين، إلى مستوى ألفاظ الفلاحات الإيطاليات وشتائمهن، ولم أكن أهجو الشخص، وإنما وجهة نظره. وبالتالي، فأنا واثق من أن الذين "أغضبتهم" سوف يغفروا لي.

لقد منحتُ أكثر من أربعين عاما من عمري لخدمة العمل الثوري، بادئا الطريق من نارودنيك (3) مفتونا بأفكار باكونين (4) إلى ماركسي دياليكتيكي صلب. وفى حينه شاع رأي بأنني ابتعدتُ عن النارودنيكيين لسبب واحد فقط ألا وهو أن العنف كأداة للنضال السياسي لم يكن مقبولا بالنسبة لي. ولكن الأمر ليس كذلك. لقد كنتُ أُجيز إمكانية ممارسة العنف-كإجراء استثنائي-إذا كان يخدم الظرف الاجتماعي. ولحسن الحظ أنه لم يُقْتَل أحد من خصومنا بمشاركتي أو موافقتي. بيد أن ذلك كان ممكن الحدوث- ثلاثة أعوام لم أفارق المسدس والقبضة الحديدية (5). إنني "خنتُ" النارودنيكيين لسبب آخر: فأيديولوجية النارودنيتشيستيفو، المبنية على روح العصيان والتمرد الباكونيني، سرعان ما خيَّبَتْ أملي. وكان السير على مبادئ نيتشايف;(6) - الصيغة المشوَّهة للباكونية-أمرا كريها بالنسبة لي. ولم تكن ترضيني أيضا مبادئ بلانكي (7) التي كان يميل النارودنيكيون إليها تدريجيا. كل ذلك إلى جانب بعض الظروف اضطرني إلى الهجرة في بداية عام 1880. وليست هناك ضرورة لإثبات أنني ابتعدتُ عن النارودنيكيين، ولكنني لم أخنهم كما فعل خصمي اللدو;لي;تيخوميروف (8);-"الثوري" الذي تراجع، والباكوني بوجهات نظر بيوتر تكاتشيوف (9)، والكارثة أيضا. ولكن الخروج من النارودنيتشيستفو لم يتوافر لي هكذا بسهولة. فقد ظللتُ طوال ثلاث سنوات في تفكير مجهد، وتوتر عصبي، وفي إيجاد حلول وسط، وفي نقاشات ساخنة مع الأصدقاء في منظمة "إعادة التقسيم الأسود" (10);ومع المهاجرين من منظمة "الإرادة الشعبية"، وفي محادثات ومكاتبات مع لافروف. وكان لافروف، الصديق القريب جدا من تشيرنشسيفسكي في الماضي، في تلك الفترة معروفا جدا وله مكانته الهامة التي دَعَّمتها جهوده الثورية النشطة وأعماله الشهيرة ومشاركته الفعَّالة في كومونة باريس والأممية الأولى، والصديق القريب لكارل ماركس وفردريك إنجلز. كل ذلك إلى جانب بعض الاختلافات الطفيفة في العلاقات الشخصية اضطرني إلى الإنصات إلى آرائه وتأجيل صياغة آرائي الماركسية.

في البداية حاولتُ العثور على الحقيقة النهائية كما فعل كل من بلينسكي وتشيرنشيفسكي في زمنهما. ولكن لحسن الحظ سرعان ما أدركتُ أنها غير موجودة ولا يمكن أن تكون موجودة. ولكن

الحقيقة هي أن تخدم في اللحظة الراهنة العمل الثوري، وهي كل ما يتفق ومصلحة الشعب. وتوصلتُ بشكل نهائي إلى الموقف الماركسي في منتصف عام 1883 فقط، وذلك عندما اكتسبتْ فكرة عملي الماركسي الأول والأصيل "الاشتراكية والنضال السياسي" ملامحها الحقيقية. على هذا النحو كانت مدة خبرتي كثوري-ماركسي قد تجاوزت العقد الرابع منذ زمن. وأنا مدين بتكويني الماركسي، قبل كل شيء إلى، أعمال ماركس وإنجلز. بيد أن الذي لعب دورا هاما في هذه العملية أيضا هو جول جيد الذي تعرفتُ عليه، إذا لم تكن قد خانتني الذاكرة، في نهاية عام 1880، والذي ربطتني به في المستقبل وجهات النظر وعلاقات الصداقة (11) .

إذا قام، فيما بعد، أي كاتب سيرة غير عميق التأمل بتحليل الفترة الماركسية لنشاطاتي، سوف يُقَسِّمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى (1880-1882)-بليخانوف الماركسي "الذي يشك"، وذلك عندما حاول فهم بأية درجة يمكن تطبيق تعاليم ماركس في الظروف الروسية.

المرحلة الثانية (1883-1905)-بليخانوف الماركسي "الأرثوذكسي" الذي، بناء على ذلك، ناضل ضد نقاد ماركس، ولكن ليس دائما بنجاح (ذلك حقيقة!).

المرحلة الثالثة: بداية من عام 1906 إلى أن قمتُ بإدانة انتفاضة موسكو المسلحة-بليخانوف الذي انحدر تدريجيا إلى صفوف "المحبطين"، وابتعد رويدا رويدا عن النضال الثوري النشط.

يُبدى البلاشفة رد فعل محدد ومعروف على المرحلة الأخيرة-"خان البروليتاريا وذهب إلى معسكر البرجوازية". ولقد أوردتُ التعريفات الثلاثة بين أقواس لأنها جميعا بعيدة عن الحقيقة. بالنسبة للمرحلة الأولى كل شئ واضح: لا يجوز الشك فى ما لم يُدْرَس أو يُفهَم بشكل كاف. وبالنسبة للمرحلتين الثانية والثالثة يمكننى أن أقول شيئا واحدا فقط: إنها غير صحيحة. فأنا لم أكن أبدا ماركسيا أرثوذكسيا، وبالتالى لم أُحْبَط أو يخيب أملى أبدا. وعليه، فمن أجل أن أظل ماركسيا-دياليكتيكيا منطقيا، كنتُ أساند فى كل مرحلة زمنية محددة واحدة من تلك الجماعات الاشتراكية-الديمقراطية التى كانت أكثر قربا من أفكار ماركس، وتتفق فى ذات الوقت مع وجهة نظر جماعة "تحرير العمل" (12) . وبالطبع، فقد كانت علاقتى بماركس تتغير تدريجيا ـ فما المدهش هنا إذا كان حتى أصحاب هذه النظرية ذاتهم كانوا أحيانا يُغَيِّرون وجهات نظرهم مع تَغَيُّر الظروف. ومع ذلك لم يمنعنى لا ارتقاء وجهات نظرى ولا اختلافى مع ماركس وإنجلز فى تقدير دور العنف فى الحركة الثورية فى روسيا ببداية الثمانينات (13) من التأكيد على إننى كنتُ وسأظل دوما حليفا مخلصا لأساتذتى.

أما فى حياتى، فأنا مثل أى إنسان، ارتكبتُ عددا غير قليل من الأخطاء. ولكن خطأى الرئيسى الذى لا يغتفر ـ هو لينين. فأنا لم أُقَدِّر جيدا إمكانياته، ولم أمعن النظر فى أهدافه الحقيقية وإصراره الذى ليس له مثيل، وكنتُ أنظر إلى تطرفه بعين العطف والسخرية. لقد أدخلتُ لينين إلى دوائر الاشتراكيين الديمقراطيين الأوروبيين المؤثرين والمعروفين، ورعيتُه، وقدَّمتُ إليه كل ما استطعتُ من عون، وبذلك مَكَّنْتُه من الوقوف على قدميه. زد على ذلك: ففى عام 1903 وقفتُ إلى جانب لينين فى خلافه مع مارتوف فى مؤتمر حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى وهو الأمر الذى أدى إلى ولادة البلشفية. آنئذ بدا لى أنه من الممكن أن أعمل تدريجيا على تَلْيِّن موقف لينين، وأن أُؤثر على الجانب المرغوب فيه لدى مارتوف ومن ثم أُحافظ على وحدة الحزب. ولكن

سرعان ما أدركتُ أن الوحدة مستحيلة لأن كل ما كان ليس على هوى لينين، لم يكن يمتلك الحق فى الوجود. كان لينين مع الوحدة، ولكن تبعا لمبادئه، وبما يتماشى مع أهدافه وتكتيكاته وشعاراته. بيد أن البلشفية الوليدة سرعان ما استجمعت قواها، أحيانا بسبب جاذبية تكتيكاتها وشعاراتها بالنسبة للبروليتاريا الروسية المتخلِّفَة، وأحيانا أخرى بسبب التصميم غير العادى للينين وقدرته الجبارة على العمل. عندئذ كان قد مضى الوقت وأصبح إصلاح الخطأ أمرا غير ممكن . وهذا هو السبب فى أن تأكيد تشيرنوف بأن البلاشفة ـ أولادى، وأن مزحة فيكتور آدلر بخصوص "أبوتى" للينين، كانت أمورا غير خالية من الصحة (14) . إن خطأى هذا قد كلَّف روسيا، وسوف يكلِّفها ثمنا باهظا. واتضح لى أنه كان خطأ قاتلا بالنسبة لى أنا أيضا. وليس هناك شك فى أنه فى حالة وصول البلاشفة الفعلى إلى السلطة، فسوف يلطخون اسمى ثم يدفعون به إلى النسيان. ولكن لحسن الحظ لن يحدث ذلك. فأنا أدرك بوضوح مكانتي في التاريخ الروسي. أنا لستُ بروميثيوس، ولا سبينوزا، ولا كانط، ولا هيجل، ولا ماركس. أنا لم أهب الناس النار، ولم أؤسس فلسفة جديدة، أو تعاليم اجتماعية جديدة. ولكنني مع ذلك أسهمتُ بقدر ما في قضية تنوير البروليتاريا الروسية، وفي قضية تطوير الفكر الاجتماعي الروسي. ولذا يمكنني أن أتجاسر على التفكير بأن التاريخ والأحفاد سوف يحاكمونني برحمة.

1. حول الماركسية والرأسمالية

إن الماركسية كنظرية متناسقة تجمع بشكل عضوي بين كل من المادية الدياليكتيكية والاقتصاد السياسي والاشتراكية العلمية - هي أعظم منجزات الفكر البشرى. وظهور "البيان الشيوعى" (المانيفستو) فى نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر- هو ظاهرة طبيعية. فمنذ لحظة ظهور الرأسمالية على الساحة التاريخية لم يكن قد حدث إطلاقا فى السابق وأن وصل استغلال الطبقة البروليتاريا إلى تلك الدرجة التي وصل إليها فى أوروبا فى تلك الفترة. كان الفكر الاجتماعى الأوروبى يفور، وأخذت الثورات التي كانت تتوالى واحدة بعد الأخرى تهز المجتمع البرجوازي، ولكن حركة البروليتاريا ظلت عفوية وغير مفهومة. كان الأمر فى حاجة إلى ذلك الشخص الذي يمكنه أن يضع في يد البروليتاريا سلاحا رهيبا - نظرية اجتماعية جديدة ترفع الطبقة العاملة إلى مستوى فهم دورها التاريخى وتمنحها أفاق مستقبلية. وبالفعل دفع التاريخ بهذا الشخص. ولعب "البيان الشيوعى" دورا هائلا فى قضية تربية البروليتاريا وتنظيمها، وفى التقدم الاجتماعى أيضا. وقامت البرجوازية المرعوبة من المنطق الحديدي "للبيان الشيوعي" و"شبح الشيوعية" بتقديم تنازلات من ناحية، ولكنها من ناحية أخرى حاولت بشتى الطرق التشهير بنظرية ماركس والحط من قيمتها. وبالتالى لم يكن هناك أى قصور إطلاقا فى الانتقادات التى توجهها الماركسية، خاصة وأن هذه الانتقادات قد تزايدت منذ نهاية التسعينات. أما نقد أولئك السادة، فلم يكن شريفا، إضافة إلى أنه لم يكن إبداعيا. ففى البداية قاموا عن وعى، أو عن سوء فهم، بتشويه ماركس على المستوى الشخصى، وبعد ذلك راحوا "يصححون" ما فعلوه بعين العطف. وتم توجيه النقد إلى جميع جوانب نظرية ماركس، ولكن الجانب الأكثر حدة من هذا النقد كان موجها على الدوام إلى نظرية التطور الاجتماعى، وخاصة إلى "البيان الشيوعى". وهذا ليس مصادفة، إذ أنه بمرور خمسين عاما صار "البيان الشيوعى" مُقْتَحَمَا ومُجَرَّحَا فى جوانب عديدة منه. فالتحليل الموجود فى "البيان الشيوعى" والصحيح تماما بالنسبة لعصر التصنيع البخارى، أخذ يفقد أهميته مع دخول الكهرباء. كما أن التطور الاجتماعى للمجتمع فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قد أخذ يسير ببعض الانحرافات والانعطافات رغم أنها لم تكن هامة جدا أو مؤثرة، عن الاستنتاجات التى وردت فى "البيـان الشيوعى"، وهو الأمر الذى كان على أية حال ملحوظا أثناء حياة مؤلفيه ومُعْتَرَفَا به من قِبَلِهما. ولكن الفكرة الأساسية التى تخللت "البيان الشيوعى" كله بقيت صحيحة إلى يومنا هذا. تلك الفكرة تتلخص فى الآتى. درجة الإنتاج المادى تحدد التركيبة الطبقية للمجتمع: طريقة تفكير الناس، وإدراكهم، وأيديولوجيتهم، ونشاطهم الذهنى... إلخ والصراع الطبقى الذى تعتمد حدته على درجة التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، يُعْتَبَر المحرِّك الرئيسى للتقدُّم الاجتماعى.

قام منتقدو ماركس فى تعاضد يبعث على الحسد بممارسة محاولات لدحض ونفى فكرة ديكتاتورية البروليتاريا. إلا إنه من البديهى أن الطبقة العاملة التى تقود النضال ضد البرجوازية وتدافع عن مصالحها مثل أية طبقة أخرى، تمتلك أيضا حقها فى الديكتاتورية خاصة وإذا كانت هى الأكثر عددا. إن ديكتاتورية الأغلبية على الأقلية لا يمكن أبدا أن تُعَد ديكتاتورية بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. إضافة إلى أن ذلك أمر مطلوب فى المرحلة الانتقالية من أجل كبح مقاومة البرجوازية.

ولكى لا يثرثر السادة نقاد ماركس كثيرا، مهما كانت حججهم وذرائعهم ودلائلهم، يجب الاعتراف على أية حال بأن المجتمع إلى وقتنا هذا يتطور فى الأساس طبقا لتعاليم ماركس. إن عدد البروليتاريا يتزايد - على الرغم من عدم سرعة هذا التزايد كما قال ماركس. وتزداد حدة فقر الجماهير- إن لم يكن بشكل مطلق، فبشكل نسبى. وتتنامى عملية الإفقار، والجريمة، وكافة العيوب والنقائص الأخرى للرأسمالية. وإذا كان الصراع الطبقى فى حالة خمود أو كلل، فهذا لبعض الوقت فقط. ولقد بدأت أزمات عملية إعادة الإنتاج تظهر بحدة ووضوح. فهل كومونـة باريس، وثورة عام 1905 فى روسيا، والحرب العالمية التى مازالت مستمرة حتى الآن، لا تثبت صحة استنتاجات ماركس؟ لا، أيها السادة نقاد ماركس، من السابق لأوانه إلغاء أو استبعاد التعالي;الاجتماعية لماركس! وبالطبع فقد كان لدى السيد برنشتاين والسيد ستروريف (15) والنقاد الآخرون بذور منطقية ولكنها ضاعت فى قشور انتقاداتهم التى كانت ترى كل شئ على نحو سئ. وكانت مهمتهم الرئيسية ليس تطوير الماركسية، بل دحضها ونفيها. وقد ألحق ذلك ضررا هائلا بالحركة الثورية لأنه قاد البروليتلريا إلى الموافقة مع البرجوازية على رفض الصراع الطبقي، وأدى إلى الانشقاق فى صفوف الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية، وفى نهاية المطاف قاد إلى الحرب العالمية: حيث قامت البروليتاريا الألمانية، التى تم تضليلها، بمساندة نشطة للطموحات الاقتصادية والعسكرية للبرجوازية الألمانية والروح الحربية لها.

أنا، الآن، كماركسي- دياليكتيكي، سأسمح لنفسى لبعض الوقت أن أكون "ناقدا" لماركس. ودون أن أتخلى عن أو أتبرأ من أى شئ كتبته فى الماضى، سأفصح عن "حماقة" لا تغتفر من وجهة نظر البلاشفة. وأعتقد أن وجودى بين الماركسيين لسنوات طويلة يمنحنى الحق فى ذلك. أما لماذا قمتُ بوضع كلمة "ناقد" بين الأقواس، فهذا ما سيصبح واضحا فيما بعد. خلال الأشهر الأخيرة التى أظهرت بصراحتها أن أيامى قد أصبحت معدودة (16) ، أمعنتُ التفكير كثيرا، وفى النهاية قررتُ صياغة ما كان يقلقنى منذ زمن بعيد بحداثته، ويحيرنى لعدم وجود إثباتات. أنا أعتقد أن ديكتاتورية الطبقة العاملة بمفهوم ماركس لن تتحقق أبدا-لا الآن ولا في المستقبل، وهاهو السبب. فبقدر تغلغل وترسيخ آلات الإنتاج الجديدة المعقدة المُصَمَّمَة على العمل بالكهرباء، وعلى ضوء إنجازات العلم التالية، سوف تتغير التركيبة الطبقية للمجتمع ليس فى صالح البروليتاريا، بل وستصبح البروليتاريا نفسها طبقة أخرى. وسيبدأ تعداد البروليتاريا، تلك التى ليس لديها ما تفقده، فى التقلص، ومن ثم ستحتل الإنتلجنسيا المركز الأول من حيث التعداد ومن حيث الدور فى عملية الإنتاج. لم يقم أى أحد بعد بالإشارة إلى هذه الإمكانية على الرغم من أن الإحصائيات الموضوعية تتحدث عن أن صفوف الإنتلجنسيا منذ بداية القرن العشرين تتزايد في علاقة تناسبية أسرع من صفوف العمال. وعلى الرغم من أن الإنتلجنسيا تبقى، إلى وقتنا هذا، مجرد "خادمة" للبرجوازية، إلا إنها فى ذات الوقت تبقى أيضا تلك الطبقة المميزة والتى تمتلك مهمة تاريخية لها خصوصيتها. فالإنتلجنسيا باعتبارها أكثر طبقات المجتمع تعليما وثقافة مكلَّفَة بحمل مشعل التنوير والأفكار الإنسانية والتقدمية إلى الجماهير. إنها – شرف وضمير وعقل الأمة. وأنا لا أشك إطلاقا بأنه فى أقرب وقت ممكن سوف تتحول الإنتلجنسيا من "خادمة" للبرجوازية إلى طبقة لها خصوصيتها وتأثيرها بشكل خطير من حيث تعدادها الذى ينمو باطراد، ومن حيث دورها الذى سيتركز أثناء عملية الإنتاج فى توصيل قوى الإنتاج إلى حد الكمال: ابتكار آلات جديدة، وأدوات جديدة، وتكنولوجيات جديدة، وخلق عامل رفيع التعليم والثقافة.

إن تنامى دور الإنتلجنسيا فى عملية الإنتاج لابد وأن يؤدى إلى تخفيف التناقضات الطبقية، خاصة وأن تلك الحدود التاريخية الاجتماعية الفلسفية، مثل الأخلاق والعدالة والمبادئ الإنسانية والثقافة والحق، التى تنطوى على جانبين: عام وطبقى ، هى حدود قريبة إلى الإنتلجنسيا بالذات. وإذا كان الجانب الثانى كوظيفة للتناقضات الطبقية يمكنه أن يتعرَّض إلى طفرة ثورية وتشكيل مبادئ مُسَيْطِرَة، فالأول ـ يتحدد كليا وبالضبط بدرجة الإنتاج المادى. وبالتالى يتطور بصورة متزايدة وارتقائية. ونظرا لأن هذا الجانب يُعْتَبَر إنسانى عام من حيث الطابع ـ حيث الإنتلجنسيا بالذات هى المنوطة به بدرجة كبيرة ـ فسوف ينعكس بصورة مفيدة على جميع طبقات المجتمع، ويخفف من التناقضات الطبقية، ويلعب دورا متناميا باستمرار. وعلى هذا النحو ستكون إحدى النتائج الرئيسية للتقدم المادى هى تقليل دور الجانب الطبقى للحدود المذكورة وزيادة دور جانب المبادئ الإنسانية العامة. وعلى سبيل المثال ، ففى المستقبل لابد وأن تتسع أطر المبادئ الإنسانية (كحد من الحدود السابقة)، التى تُفْهَم فى أيامنا هذه كمنظومة التصورات حول قيم الإنسان ومصلحته وحقه، إلى مفهوم ضرورة الاهتمام بكل ما هو حى، وبالطبيعة المحيطة، وهذا هو تطوير وتقوية دور الجانب الإنسانى العام لهذا الحد. ولعل التطور الشديد لقوى الإنتاج، وتزايد عدد الإنتلجنسيا سوف يعملان بشكل مبدئى على تغيير الظرف الاجتماعى. والعامل المطلوب منه معرفة أكثر من أجل توجيه الآلة المعقَّدَة سوف ينتهى دوره كزائدة إضافية أو كذيل لها. وسوف يتزايد من كل بد ثمن قوة العمل، وبالتالى أجر العامل، لأنه من أجل إعادة إنتاج ذلك العامل يتطلب الأمر مصروفات أكبر. وسوف يتم الاستغناء عن استغلال جهد الأطفال نتيجة لتعقيد الآلات. وعلى ضوء التعليم ومستوى الثقافة والأفكار سوف يرتفع العامل إلى مستوى الإنتلجنسيا. وستكون ديكتاتورية البروليتاريا فى هذه الحالة نوعا من أنواع العبث. ما هذا؟ هل هو ابتعاد أو انحراف عن الماركسية؟ لا، وألف لا! أنا واثق: أن ماركس مع هذا الانعطاف للأحداث، وحدوث ذلك أثناء حياته، كان سيرفض على الفور شعار ديكتاتورية البروليتاريا.

وبقدر التغير النوعي لقوى الإنتاج سوف تتشكل طبقات جديدة، وعلاقات إنتاج جديدة، وسيجري الصراع الطبقي بشكل جديد، وستتغلغل الأفكار الإنسانية بعمق في جميع طبقات المجتمع. وسوف يتعلم المجتمع، حتى الذي بقى منه رأسماليا من حيث الجوهر، تجاوز أزماته. وستعمل الأفكار الإنسانية والإنتاج الضخم على تحييد عملية الإفقار. إنني أحيانا أفكر في الفترة الأخيرة أنه حتى نظرية ماركس التي وُلِدَتْ في ظروف الحضارة الأوروبية، من المشكوك فيه أن تصبح نظاما عاما لوجهات النظر، لأن التطور الاجتماعي- الاقتصادي للعالم يمكن أن يسير على نمط المراكز المتعددة. في سياق ما ورد أعلاه ليس من المستبعد أن تكون بعض أفكار السيد توجان بارانوفسكي غير خاطِئة كما كنتُ أعتقد. ولكنني أُطَمْئِن الماركسيين الحاليين- لن يحدث ذلك في القريب العاجل. وسوف يظل اسم ماركس، الذي صنع الصراع الطبقي، منقوشا لفترة طويلة على رايات الثوريين.

إن التقليل من قيمة إسهامات ماركس أمر غير ممكن. فأن يعيش العمال الإنجليز فى الوقت الحاضر، رغم الحرب، بشكل أفضل، ويملكون حريات سياسية أكبر مما كانت عليه فى منتصف القرن الماضى ـ فهذا إسهام ماركس! وأن عمال الزمن القادم ، بدون أى شك، سوف يعيشون أفضل بكثير وفى مجتمع أكثر ديمقراطية من مجتمع اليوم ـ فهذا إسهام ماركس! وحتى الرأسمالية،

والرأسماليون أنفسهم سوف يتغيرون إلى الأفضل (البلاشفة وحدهم هم الذين لا يرون ذلك) ـ هذا أيضا إسهام ماركس!

لقد أدرك الرأسمالى المعاصر منذ زمن أن الأكثر منفعة له هو التعامل مع العامل المكتفى الراضى أكثر من الجائع الساخط (17). ولذلك فلا أعتقد كثيرا، وكثيرا لأسباب أخرى، أن الرأسمالية ستُدْفَن قريبا. فمتابعاتى لتطور الرأسمالية فى أوروبا، والتى قمتُ بها منذ بداية رحيل ماركس وخاصة من بداية هذا القرن، تدل على أن الرأسمالية شكل اجتماعى مرن يُبدى ردود أفعال على النضال الاجتماعى ، يتغيَّر ويتحوَّل ويتكيَّف، يتأنسن ويتحرك فى اتجاه فهم وإدراك وتكييف أفكار متفرِّقة من الاشتراكية. وإذا كان الأمر كذلك، فهى إذن ليست فى حاجة إلى حفَّار قبور. وفى كل الأحوال فالرأسمالية لديها مستقبل يبعث على الحسد. وهاهى المراحل الممكنة أو المتوقَّعَة لتطور الرأسمالية ـ الرأسمالية القومية المتوحِّشة، الرأسمالية الدولية المتوحشة، الرأسمالية الليبرالية بعناصر ديمقراطية، الرأسمالية الليبرالية ـ الديمقراطية، الرأسمالية الإنسانية ـ الديمقراطية بمنظومة متطورة للتأمينات الاجتماعية. وأنا لا أرى ضرورة لمحاولات التنبؤ أو التكهن بملامح محددة بالضبط للمرحلة الأخيرة التى يمكن أن تسير فيها عناصر الرأسمالية والاشتراكية جنبا إلى جنب ولمدة طويلة: ستتنافس فى أمور ما، وستكمل بعضها البعض فى أمور أخرى ومن الممكن فى المستقبل أن تموت الرأسمالية من تلقاء نفسها، فى بطء وبدون مرض، ولكن ذلك يحتاج إلى قرن على الأقل، وربما ليس إلى قرن واحد. فهل هذا يعنى إننى تراجعتُ عن الطفرات الثورية؟ لا، إطلاقا ! فسوف تكون موجودة بالطبع. فأى تَغَيُّر نوعى لعلاقات الإنتاج، حتى غير الملحوظ ـ يُعتَبَر ثورة. وإذا سارت الأمور بالشكل الذى أفترضه، فما هو الشعار الذى يمكن أن يرفعه الثوريون الجدد؟ ديكتاتورية الإنتلجنسيا؟ بيد أن سلطة الشغيلة ـ هو الشعار الذى لن يفقد معناه وسيظل صحيحا! فمن يعيش على عمله وجهده، هو الذى يجب أن يقرر ما ينبغى أن يكون عليه البناء السياسى والتشريعى. هذا الشعار كررته أكثر من مرة فى العام الماضى قاصدا به تحالف جميع القوى الحية التى تهمها مصالح القوى العاملة عمالا كانوا أو فلاحين أو إنتلجنسيا.

2. حول البلاشفة وتكتيكاتهم وأيديولوجيتهم

إن البلشفية كتيار يسارى متطرف فى الاشتراكية-الديمقراطية الروسية، التى وُلِدَتْ عام 1903 وصارت أقوى بكثير فى سنوات ما قبل الحرب، تُعتَبَر فى الوقت الحاضر أكبر القوى التنظيمية والأيديولوجية والسياسية المؤثرة. ولقد كانت الأسباب الموضوعية لظهور وازدهار البلشفية فى روسيا هو تخلف البروليتاريا الروسية، وكثرة العناصر اللاطبقية، والأمية وانعدام الثقافة لدى الروس (18). أما الأسباب الذاتية فقد أوردتُها سابقا. بيد أن البلشفية ليست شيئا ما جديدا بصورة مبدئية. فالأفكار البلشفية كثيرا ما دارت فى رؤوس الثوريين منذ زمن بعيد. فاليعقوبيون;(19) وبلانكى وباكونين;(20) وأنصارهم، والكثيرون من المشاركين فى كومونة باريس بشأن قضايا التكتيك والأيديولوجية كانوا عمليا بلاشفة. وكما أن الثورات الدموية هى دلائل الرأسمالية المتخلفة، فأفكار البلشفية كانت دوما دلائل البروليتاريا المتخلفة، والفقر، وانعدام الثقافة، والوعى المتخلف للشغيلة. لقد كتب الكثيرون، وأنا من ضمنهم، عن البلاشفة وتكتيكاتهم وأيديولوجيتهم ، ولذلك سأكون موجزا جدا فى الكلام عنهم .

البلشفية تكتيك له خصوصيته، وأيديولوجية لها خصوصيتها. وهى موجهة إلى البروليتاريا الرثة (21);. وهذا الشعار مستعار من سان سيمون والفوضويين ـ النقابيين، إنه علم الاصطلاح الماركسى.

تكتيك البلاشفة ـ هو تكتيك بلانكى مضافا إليه العنف الطبقى غير المحدود بأية أطر. وأيديولوجية البلشفية ـ هى أيديولوجية باكونين التى تم " إثراؤها " بأفكار الفوضويين ـ النقابيين، تلك الأفكار التى يُعتَبَر دوميللا نيوينهيوس (22) الأب الروحى لها. وهى موجهة، على حد تعبير باكونين، إلــى "البروليتاريا الجائعة المتوحشة"، وإلى "عامة العمال الجامحين". إن تثمين حكمة الشعب عاليا، ومبادراته، وقدرته على التنظيم الذاتى، والثقة فى قدرة البروليتاريا على الإنتاج الذاتى والرقابــة الذاتية ـ كل تلك الأمور كانت أمراض باكونين والفوضويين ـ النقابيين.

"السلام!"، "العمل! "، "السعادة! "، " المساواة!"، "الأخوة!" ـ هى شعـارات الطوباويين. "سوف نحوّل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية!" (الشعار الذى أخذه القوميون ـ الانهزاميون من أجل التسلح)، "المعامل والمصانع ـ للعمال!"، "السلام ـ للشعوب!"، "الأرض ـ للفلاحين!" ـ هى شعارات الفوضويين النقابيين. "ديكتاتورية البروليتاريا"، "الديمقراطيـة البروليتارية"، "التلاشى التدريجى للدولة" ـ هى أفكار ماركس. على هذا النحو، فالبلشفية ـ هى بلانكية ممتزجة تماما بالفوضوية ـ النقابية المنضوية تحت راية الماركسية. وهى اقتران دوجمائى توليفى (أو اصطفائى) لأفكار بلانكى وباكونين والفوضويين ـ النقابيين وماركس. وهى ماركسية مشوَّهة، لأن مؤسسا الاشتراكية العلمية كانا خصمين مبدئيين ومنطقيين لبلانكى وباكونين وللفوضويين الآخرين. لقد تم طرد البلانكيين والباكونيين من الأممية الأولى، والفوضويين ـ النقابيين من الثانية. وهكذا فالأب الروحى للينين فى مجال التكتيك هو بلانكى، أما فى مجال الأيديولوجيا ـ باكونين ودوميللا نيوينهيوس. وأفكار الأخير التى أُخِذَتْ من أجل تسليح "الانهزاميين" انعكست بشكل قاتل على

روسيا. إن دوميللا نيوينهيوس وجوستاف إروى (23);وروبرت جريم (24) ولينين هم سلسلة النسب لأى أممى انهزامى هو فى جوهر الأمر فوضوى نقابى.

ولكن ما هو الجديد فى البلشفية؟ شئ واحد فقط ـ العنف الطبقى الشمولى غير المحدود. بيد أن العنف الطبقى، وخاصة غير المحدود، تم رفضه وإدانته منذ زمن بعيد من قِبَل الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية. إن العنف الطبقى الذى يميل إليه البلاشفة كطريقة لتحقيق ديكتاتورية البروليتاريا يخفى وراءه خطرا هائلا، لأنه من الممكن أن يحوَّل إلى عنف شمولى تمارسه الدولة فى ظل الظروف الحالية لروسيا. ولقد كنا نؤكد دائما ـ ليس فقط نحن، وإنما أيضا خصومنا ـ أن الاشتراكية هى مجتمع العدل الاجتماعى والإنسانية، ولذا لا يجوز بناؤه على أساس القوة والعنف. وكما أن الخير المبنى على الشر يحمل بداخله جنينا أكثر شرا، فالمجتمع المبنى على الخداع والعنف يحمل فى جوانبه الشر والكراهية، وبالتالى ينطوى على شحنة فنائه الذاتى.

لا يوجد أى معنى للتوقف عند شعارات الطوباويين. فشعارات "السلام للشعوب**!**" و"المعامل والمصانع للعمال**!**" و"الأرض للفلاحين**!**" ـ شعارات جذَّابة ولكنها مُضَلِلة فى جوهرها وليس على الإطلاق ماركسية. وبدلا من السلام الداخلى يقوم البلاشفة بتعريض روسيا لحرب أهلية بالغة القسوة، ولعنف طبقى ليس له نهاية، فهاهى الحرب تدق الأبواب، وسوف تراق فيها أنهار من الدماء. إن الحرب الأهلية الدموية عديمة الرحمة أمر ضرورى للبلاشفة ، لأنه لا يمكنهم الحفاظ على السلطة وترسيخها إلا على هذا الطريق. ومع ذلك فالبلاشفة لا يمكنهم تأمين السلام الخارجى. ففى حالة انتصار روسيا البلشفية ، ستصبح وسط دائرة من الدول الرأسمالية التى لن تتوانى عن محاولات القضاء على البلاشفة الذين يصيحون فى جنون بحتمية الثورة العالمية.

سوف يتحول العمال فى ظل الاشتراكية اللينينية من عمال يستأجرهم الرأسمالى إلى عمال تستأجرهم الدولة الإقطاعية. أما الفلاحون الذين سيتم انتزاع الأرض منهم بشكل أو آخر، والذين سيتم حتما إلقاء كل ثقل تصنيع البلاد على عاتقهم ـ سيصبحون عبيدا لدى هذه الدولة الإقطاعية. فإلى أى شئ قاد شعار لينين " سلام بدون إلحاق قسرى أو تعويضات حرب**!**" والجميع يعرفون جيدا فضيحة "سلام برست"(25) وعاره والإلحاقات القسرية التى تمت، والتعويضات الضخمة التى دُفِعَتْ. لقد فعل لينين كل ما بوسعه من أجل تفكيك الجيش الروسى ثم تسريحه بعد ذلك. والآن من أجل أن يقنعنا بضرورة "سلام برست" يصيح متعجبا فى حرارة: "افهمونى**!** ليس لدينا جيش قادر على الحرب**!**" ولكن إذا كان قد ظل لدى لينين ولو ذرة وطنية، فعليه أن يصلِّى للرب ليلا (أو للشيطان، فلا أدرى أيهما يعبد) من أجل أن يتم دحر ألمانيا ـ وسوف تفقد روسيا فى أسوأ الأحوال استقلالها الاقتصادى، بل وربما السياسى أيضا، وسيصبح الحاكم الأوحد الذى تم تنصيبه مجرد دمية ألمانية. ولكن كيف تم تحقيق مبدأ الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية "حق الأمة فى تقرير مصيرها" فى التجربة البلشفية، خاصة وأننا نعرف جيدا مرسوم استقلال فنلندا الذى منحه لينين للرجعى السفاح ب. سفينهوفود (26) دون حتى أن يسأل عن رأى العمال والفلاحين الفنلنديين فى ذلك. فلماذا؟ لأن ذلك كان ضروريا للينين ولأسباب تكتيكية. فمن أجل تحقيق بعض الأهداف السريعة يتم التضحية بكل شئ على مذبح التكتيك: الضمير والأخلاق الإنسانيـة العامة، ومصالح الوطن.

إن تعداد حزب البلاشفة يتزايد فى الفترة الأخيرة بشكل مُطَّرِد. بيد أن ذلك لا يعنى تزايد الجزء الواعى فيه، لأن الأغلبية المقهورة التى انضمت إلى الحزب لا تعرف حتى مبادئ الاشتراكية

العلمية. فالجزء الذى صدَّق أفكار لينين ووعود البلاشفة سوف يصبح مُنَفِّذًا أعمى لإرادة زعيمه، والجزء الآخر الذى انضم إلى الحزب لكى يختطف نصيبه من "الكعكة الثورية" فى الوقت المناسب، سوف يكون مؤهلا فقط للتصويت بـ "نعم"، وسيتحوَّل هذا الجزء فى المستقبل إلى بيروقراطيين حزبيين أسوأ من الموظفين القيصريين، لأن الموظف الذى يقود الحزب سيتدخل فى كل شئ ولن يكون مسؤولا إلا أمام "الرفاق الحزبيين".

إن تصرفات البلاشفة أصحاب الكلام المعسول تبرهن على أن شقاء صاحب العقل ـ ليس شقاءهم. فشقاؤهم بسبب الجهل، وبسبب الإيمان الأعمى بلينين وبـ "اكتشافاته النظرية العبقرية" التى يصدرها فى مراسيم وقرارات دون حتى أن يرى ضرورة لدعمها ولوحتى بأبسط البراهين. ولكنهم من دون حتى أن يعرفوا أى شئ عن الاشتراكية العلمية، سوف يرتكبون الجريمة وراء الأخرى دون أن يَشُكُّوا فى أن العنف الثورى هو أمر غير شرعى.

إن عملية نزع الملكية التى يمارسونها، على سبيل المثال، ما هى إلا دليل صارخ على عدم الشرعية، وعلى التخريبية واللصوصية (مثلما يحدث مع البنوك الخاصة). إن عملية نزع الملكية هذه سوف تقود حتما إلى فوضى اقتصادية شاملة، وستخلق طبقة واسعة من الناس الذين بدلا من أن يعملوا، سوف يقومون "بسلخ الرقاب"، وسيلجأون إلى البنادق والشعارات الثورية ويبدأون فى انتزاع آخر دجاجة لدى الفلاحين.

بعد أن قام لينين بانقلابه معلنا أنه ثورة اشتراكية، سوف يبدأ فى توجيه التاريخ الروسى إلى طريق خاطئ ومسدود. ونتيجة لذلك سوف تتخلف روسيا فى تطورها لسنوات طويلة، بل وربما لعشرات السنين. وعموما فليس هناك لا وقت ولا قوة لإثبات ذلك بشكل دقيق وصارم. إلا إنه إذا أخذنا فى الاعتبار أهمية هذه الحقيقة ودراية الروس المتدنية جدا وخاصة فى قضايا الاشتراكية العلمية، ينبغى لى على أية حال أن أقوم بصياغة بعض المقدمات المنطقية. لقد قمتُ أكثر من مرة بتحذير البلاشفة، وكل من يميل إلى مصطلحاتهم وتعبيراتهم وشعاراتهم المُضَلِّلَة، من العجلة وروح المخاطرة فى العمليات الثورية. ولقد أكدتُ ومازلتُ أؤكد: روسيا ليست جاهزة للثورة الاشتراكية، لا بمستوى تطور قوى الإنتاج، ولا بتعداد البروليتاريا، ثقافة الجماهير ووعيها. ولذلك فالتجربة الاشتراكية التى اخترعها لينين لن يكون مصيرها إلا الفشل. يسألنى أحد اللينينيين أو"أنصاف اللينينيين" (27);: " ألا يجوز، فى ظروف سلطة البروليتاريا، القضاء على الأمية، ورفع مستوى ثقافة الشغيلة، وزيادة عدد العمال بسرعة، وتطوير قوى الإنتاج؟" (28);وأجيبُ: لا، لا يجوز! أولا، لا يجوز تخطى القوانين الموضوعية للتطور الاجتماعى لأن ذلك لن يبقى بلا عواقب. ثانيا، ثقافة الجماهير ووعيها ـ عنصر اجتماعى يعتمد كليا على درجة تطور قوى الإنتاج ، على الرغم طبعا من وجود علاقة عكسية (29);، ثالثا، بالرغم من أن لينين قد أقر علاقات الإنتاج الاشتراكية، فقد أبقى على قوى الإنتاج فى المؤخرة، وبذلك صنع وضعا ثوريا عكسيا. فى المجتمع لا توجد تناقضات متعادية إلا فى تلك الحالة التى تكون فيها علاقات الإنتاج الموجودة متوافقة مع مستوى تطور قوى الإنتاج. بيد أن عدم توافق مثل هذه العلاقة يُنْتِج تناقضات جديدة غير معروفة إلى وقتنا هذا، وهى تناقضات ليست أقل، وإنما بالأحرى أكثر مأساوية مما هو موجود فى الرأسمالية الموجودة فى الوقت الحاضر. رابعا، السلطة فى تلك المرحلة من تاريخ روسيا لا يمكن أن تكون ولن تكون فى يد البروليتاريا. ففى أكتوبر عام 1917م لم يساند لينين بشكل نشط سوى 1% من الروس. وبالتالى فكل مَنْ ولو حتى على دراية بتكتيك بلانكى، سيوافق على أن ثورة

أكتوبر هى ذلك الانقلاب البلانكىّ الذى، على حد تأكيد إنجلز، يق;بحتمية ديكتاتورية منفذيه. بيد أن أية ديكتاتورية لا يمكن أن تتوافق مع الحريات المدنية والسياسية. أنا لا أريد أن أكون أعلى من ألكسندرا;(30) ، ولكننى على أية حال أؤكد بأن مراحل تطور سلطة البلاشفة ستكون على النحو التالى: سرعان ما ستتحول ديكتاتورية البروليتاريا على الطريقة اللينينية إلى يكتاتورية الحزب الواحد، وديكتاتورية الحزب الواحد إلى ديكتاتورية قائده الذى سيدعم سلطته فى البداية بالعنف الطبقى ثم بعد ذلك بالعنف الشامل للدولة. فالبلاشفة لا يمكنهم إعطاء الشعب لا الديمقراطية ولا الحرية، لأنهم إذا فعلوا ذلك سيفقدون السلطة. لينين يدرك ذلك جيدا. ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فالبلاشفة ليس لديهم طريق آخر سوى طريق العنف، والخداع، والترويع، والإكراه. ولكن هل من الممكن تطوير قوى الإنتاج بسرعة وبناء مجتمع عادل عن طريق العنف والخداع والترويع والإكراه؟ لا، طبعا! هذا ممكن فقط فى ظروف الديمقراطية وعلى أساس العمل الواعى والحر والذى يتوخى المصلحة. ولكن عن أية ديمقراطية يمكن أن يدور الحديث إذا كان البلاشفة فى أقل من ستة أشهر قد أغلقوا قدرا من الصحف والمجلات أكبر مما أغلقته السلطة القيصرية طوال حكم أسرة رامانوف كله. وعن أى حرية وعمل يتوخى المصلحة يمكن الحديث إذا كان قد تم إقرار "احتكار الخبز"، ووضع قضية السخرة وجيوش العمل للمناقشة (31) .

إن البلاشفة بسعيهم إلى التغييرات الجذرية والتعجيل غير المسؤول للأحداث يتطرفون بشكل جامح إلى اليسار، ولكنهم بسيرهم فى دائرة سياسية مغلقة سوف ينعطفون حتما إلى أقصى اليمين وسيتحولون إلى قوة رجعية سلبية (32) . من النادر أن يُقَدِّر الناس تصرفاتهم على ضوء كل الآثار الممكنة المترتبة عليها، ولينين بأعماله هذه قد قام بإلحاق ضرر هائل بروسيا، وأخشى أن يصل حجم هذا الضرر خلال بعض مراحل حكم البلاشفة إلى نقطة حرجة. وإذا كان لينين والسائرون على دربه سوف يرسخون سلطتهم لفترة طويلة ، فسوف يكون مستقبل روسيا محزنا ـ ينتظرها مصير إمبراطورية الإنكييـن (33) . إن "المفوضين الشعبيين" الذين استبدلوا أنفسهم بـ "مخربى قرطاجنة القساة" يخربون ليس العالم القديم، بل وطنهم. وسوف يتضح أن "أدوية موريسون" (34);الشافية التى يعدون بها ما هى إلا مجرد عقاقير سامة، وأن "مدخلهم الإبداعى" إلى الاشتراكية ما هو إلا نزع الثقة منها والتشهير بها وتشويهها. إن تأكيد لينين بإمكانية انتصار الثورة الاشتراكية فى بلد واحد ـ بلد مثل روسيا ـ لا يمكن أبدا أن يكون مدخلا إبداعيا إلى الماركسية، وإنما هو انحراف عنها. وقد توصَّل لينين إلى هذا الاستنتاج ليس بمحض الصدفة: فقد كان بحاجة ماسة إليه من أجل أن يلهم البلاشفة.

إن حسبة لينين بأن البروليتاريا الغربية سوف تقوم باستلهام الثورة فى روسيا مجرد حسبـة خاطئة، فلا يمكن أن يحدث أى شئ جدى فى أوروبا، لأن البروليتاريا الغربية تقريبا بعيدة اليوم أيضا عن الثورة الاشتراكية كما كانت فى زمن ماركس.

إن طريق البلاشفة، مهما طال أو قصر، سوف يوصم بتزوير التاريخ، والجرائم، والتضليل، والديماجوجية، والتصرفات غير الشريفة. والآن يمكن للشخص المُطّلِع أن يُمَيِّز كمية اللحظات المثيرة للشك فى الفترة القصيرة لوجودهم فى السلطة. فعلى سبيل المثال ، لماذا جاء أصدقاء لينين إلى بطرسبورج فى واحدة من أحرج اللحظات حينما كانت سلطة البلاشفة معلَّقة بشعرة ـ فريتس بلاتيـــن و"ك"؟ لماذا كان لينين فى حاجة ماسة إلى "تأميم" البنوك الخاصة؟ هل من المعقول من أجل أن يختلف مع حلفائه الوحيدين ـ حزب الاشتراكيين الثوريين ـ قبل انعقاد المجلس التأسيسى

بقليل ؟ لماذا قام لينين بشكل سريع ومثير للدهشة بمنح فنلندا الاستقلال وسحب الجيش منها؟ مَنْ الذى كان مِنْ مصلحته اغتيال لينين قبل انعقاد المجلس التأسيسى بعدة أيام (35) . يمكننى مواصلة طرح مثل هذه الأسئلة، ولكن بما إننى لا أملك إمكانية فى حالتى هذه لإعطاء إجابات مقنعة، فسوف أكف عن ذلك. فكل ما قيل عن البلاشفة وتكتيكاتهم وأيديولوجيتهم ومدخلهم إلى عملية نزع المِلْكِية وعنفهم غير المحدود ـ يجعلنى أؤكد بثقة على: الفشل الحتمى للبلاشفة! فالعنف الذى يعتمد عليه البلاشفة هو ـ قوة الحراب. ولكن الجلوس على الحراب كما هو معروف أمر غير مريح أيضا. القرن العشرون ـ قرن الاكتشافات العظيمة، قرن التنوير، والأنسنة، سوف يرفض البلشفية ويدينها. وثمة فكرة يمكننى التصريح بها هنا، ألا وهى أن لينين باعتماده على العنف الشامل، سوف يخرج منتصرا من الحرب الأهلية التى كان يسعى إليها بتصميم شديد فى هذه الحالة سوف تصبح روسيا البلشفية فى عزلة سياسية ـ اقتصادية، وستتحول حتما إلى معسكر حربى حيث سيروعون المواطنين بالإمبريالية ويطعمونهم الوعود. ولكن، إن عاجلا أو آجلا، سيأتى الزمن الذى تصبح فيه أفكار لينين الخاطئة واضحة للجميع ـ عندئذ ستنهار الاشتراكية البلشفية مثل بيت من الكارتون. إننى أبكى مصير الروس، ولكننى مثل تشيرنشيفسكى، أقول: " ليحدث ما يحدث، ولكن شارعنا سيكون فيه عيد!" (36;

3. لماذا تخليتُ عن النضال إلى جانب البلاشفة

إن رفضى النضال إلى جانب البلاشفة بعد أحداث أكتوبر أثار حيرة الكثيرين. فالبعض، من الذين لا يعرفوننى جيدا، يعتقدون أن قرارى هذا نتيجة لعملية التفتيش الخشنة التى تعرض لها منزلى، والتى قام بها البلاشفة بعد عدة أيام من انقلاب أكتوبر. هذا خطأ. فالتفتيش الذى قاده، على حد ظنى، البحار س.كوكوتكو (37) لم يرهبنى زد على ذلك أنه لم يكن سببا فى تدهور صحتى كما كتبت بعض الصحف. والبعض الآخر، من الذين يعرفوننى بشكل أفضل، يرون أن ذلك نتيجة التفاقم الحاد لمرضى. ولكن هم أيضا ليسوا على صواب. على الرغم من أن صحتى فعلا سرعان ما ساءت مع حلول الخريف حتى إننى أصبحتُ فى شهر يناير 1918م غير قادر على الإمساك بالقلم. ومع ذلك فلم يكن مرضى ليمنعنى لو كنتُ قد رأيتُ هناك معنى للنضال: فإذا لم تكن هناك قوة على الكتابة، فمن الممكن الإملاء. ولكننى رفضتُ النضال لعدة أسباب موضوعية:

أ- وجهة نظرى المبدئية بالنسبة للحرب، وانتقاد البلاشفة وأنصاف اللينينيين، وعدم الرغبة فى اللعب مع البروليتاريا الرثة أو حثالة البروليتاريا، ورفض تعميق الثورة، والعلاقة المخلصة للحكومة المؤقتة ـ كل ذلك قد فعل فعله ضدى. فقد كنتُ أرى كل ذلك، ولكننى لم أكن أريد أن أكون مثل، على سبيل المثال، تسيرتيل وتشيخيدزه وأفكسينتيوف (38) ، وآخرين ضحوا بمبادئهم وتنازلوا للينين من أجل الحفاظ على شهرتهم. وبعد أحداث يوليو أخذت تقوى، وبشكل يومى، حدة الحقد الطبقى والشراسة التى ضخها البلاشفة إلى جانب الصمم السياسى والعماء. وقد ظهر كل ذلك على وجه الخصوص فى اجتماع موسكو (39) ، فعندما كنتُ أتوجه إلى اليمين، إلى طبقة التجار والتصنيعيين، كان الجانب الأيمن يصفِّق والأيسر يصمت. وعندما كنتُ أتوجه إلى اليسار، إلى الاشتراكيين الديمقراطيين الروس، كان الجانب الأيسر يصفِّق والأيمن يصمت. وكانت النتيجة أنه لم يفهمنى لا أولئك ولا هؤلاء. أما الحل الوسط، الذى كان هو الطريق الوحيد لإنقاذ روسيا، فقد تم التضحية به بسب الغطرسة السياسية. وكان البلاشفة قبل أى أحد آخر السبب فى ذلك. ولكن كانت هناك أسباب موضوعية لذلك: عدم نضج البروليتاريا (والبرجوازية أيضا!) وأمية الجماهير، والفقر الحاد والإجهاد المضنى لدى الشعب، والحرب القائمة، وانقسام الاشتراكيين الديمقراطيين الأوروبيين والروس، وخمول الحكومة المؤقتة وعدم منطقيتها كانا التربة الخصبة التى نمت فيها سريعا البذور الفوضوية اللينينية والعداء الطبقى. فى مثل هذا الوضع الاجتماعى الذى تشكَّل بصورة موضوعية، كانت مواصلة النضال إلى جانب البلاشفة أمرا ليس لـه أى معنى.

ب- لقد وهبتُ حياتى كلها من أجل النضال فى سبيل تحرير الطبقة العاملة. والآن، عندما وصلتْ السلطة إلى أيدى أعضاء السوفيتات من العمال والفلاحين، لا أستطيع النضال إلى جانب مَنْ اعتبرتهم، ومازلتُ أعتبرهم إخوانى على الرغم من إنهم، أولئك الذين يخدعهم قادتهم الملتوون، يرتكبون خطأ قاتلا ونتائج هذا الخطأ سوف تكون مأساوية للغاية بالنسبة للبروليتاريا الروسية قبل أى أحد آخر. ولكن دع البروليتاريا الروسية ـ مهما كان ذلك مؤلما ـ تقطع هذا الطريق الشاق الذى رسمه لها التاريخ، وتنضج وترتفع إلى مستوى إدراك مهمتها.

ج- هناك أيضا أفكار أخرى منعتنى من النضال. فإذا فشل البلاشفة الآن، فسوف ينشأ رد فعل عميق وطويل المدى، ستكون نتيجته خسارة الاشتراكية الديمقراطية الروسية والغربية على حد سواء. أما انتصار البروليتاريا، فسوف يضيع هباء. ولكن إذا حافظ البلاشفة على السلطة ولو حتى فى السنوات القليلة القادمة، فسوف تخسر روسيا ومواطنيها، ولكن الاشتراكية الديمقراطية الدولية لن تحقق سوى المكاسب: سوف تقوم البرجوازية الغربية المرعوبة من الأحداث فى روسيا بتقديم تنازلات جدية للطبقة العاملة. إننى أتألم من أجل روسيا، ولكن إذا كنتُ سأختار بين ذلك وبين كونى أممى منطقى، فسوف أختار الثانية.

4. كيف يصمد البلاشفة طويلا فى السلطة

هذا السؤال يثير فى الوقت الحاضر قلق الكثيرين . يطرحه خصوم البلاشفة ، والبلاشفة أنفسهم . إنه سؤال يهم كل روسى مبال بمصير الوطن . والإجابة على هذا السؤال لا يمكن أن تكون أبدا فورية أو بسيطة أو ذات مدلول واحد لأنها تتوقف على العديد من العوامل الموضوعية والذاتية، بل وحتى الصدفوية. التنبؤ- أمر غير لائق. ولذا فسوف أؤسس تنبؤاتى فى إطار تلك الحدود التى يمكن أن يكون فيها ذلك الأمر ممكنا. بالإضافة إلى إننى مضطر إلى عمل ذلك على اعتبار إننى كنتُ وما زلتُ أرى: أن المستقبل، وفى أبعد الأحوال المستقبل القريب، لا يمكن أن يكون غير واضح أو محدد. زد على ذلك إننى تحدثتُ أكثر من مرة بأن الشخص الذى فهم الماضى وأحسن التصرف مع الحاضر، والذى يرى العلاقة الجدلية بين تعاقب الأحداث التاريخية وسببيتها، قادر ببعض الثقة على استشراف المستقبل. فالظروف التاريخية الموضوعية التى تراكمت فى روسيا إلى هذه اللحظة الراهنة، ومنطق تطور الأحداث، وتصرفات البلاشفة التى تمليها تكتيكاتهم وأيديولوجيتهم - كل ذلك يسمح لى بالتأكيد على سوف يصطدمون بأربع أزمات على طريق إرساء سلطتهم، وهذه الأزمات مرتبة ترتيبا تصاعديا من حيث الصعوبة. وستكون فترة وجودهم فى السلطة مرهونة بأى واحدة منها سيتعثرون.

الأزمة الأولى، القريبة عديمة الرحمة، القادمة - هى أزمة المجاعة. إذا لم يتخلَّص لينين من التحالف مع الاشتراكيين الثوريين الذين يلتزمون بالعنف الطبقى (على سبيل المثال، مع السيد بوريشكيفيتش (40)) ويقفون بشراسة ضد فرق التموين والأغذية ، فسوف يفقد البلاشفة السلطة فى خريف هذا العام (عام 1918-أ. ص) حينما يبدأ الفلاحون بدفن القمح فى الأرض بينما تتهدد البلاد مجاعة لم تحدث من قبل. وسيأتى إلى السلطة الاشتراكيون الثوريون والكاديت والمناشفة. ولكن إذا أزاح البلاشفة الاشتراكيين الثوريين اليساريين من المؤسسات الحاكمة من أجل أن تتحرر بذلك أياديهم، سيمكنهم اجتياز الأزمة القادمة. إلا أن لينين بفهمه ذلك جيدا وإدراكه له، فسوف ينتهز أول فرصة لانتزاع الثقة من حلفاء الأمس وسحقهم مع كل التناقضات التى نشأت وتطوَّرت منذ لحظة حل المجلس التأسيسى. إن حتمية ذلك لا تتطلب براهين وإثباتات. فرفض الاشتراكيين الثوريين اليساريين منذ فترة غير بعيدة بالتوقيع على معاهدة العار "سلام برست"، وخروجهم من مجلس المفوضين الشعبيين، وعدم رضائهم عن "احتكار الخبز" الذى أعلنه لينين - كل ذلك يفصح عن أن أزمة العلاقات بينهم وبين البلاشفة قد وصلت إلى ذلك الحد الذى سيعقبه انفجار كامل، وهذا الأمر مرهون بالأشهر القادمة. إن قيام البلاشفة بتأليب العمال المتخلفين، وأولئك الذين - على حد تعبير البحار أ. ألكسندروفسكى;(41) الدقيق - كتبوا على راياتهم "انتزع!"، ضد الفلاحين الميسورين ومتوسطى الحال، سوف يصمدون عاما أو اثنين إلى أن تصبح عدم قدرتهم على إعادة الإنتاج أمرا واضحا تماما، وبالذات للعمال أنفسهم.

ومع ذلك فهم يستطيعون اجتياز تلك الأزمة أيضا - أزمة الانهيار - فى حالة إذا ما قاموا بإشعال حرب أهلية طويلة الأمد، ثم باستخدام العنف الطبقى غير المحدود وقوانين زمن الحرب، يبدأون فى إبادة كل من لا يتفق معهم بشكل فعلى. وسوف تسمح لهم الحرب الأهلية بفرض حالة الحرب على جميع أنحاء روسيا وإلقاء تهمة الانهيار على الأعداء الخارجيين والطبقيين. وبالمناسبة،

فبمجرد أن تبدأ الحرب الأهلية سوف يحارب جزء كبير من الفلاحين فى صفوف البلاشفة. فالرجل الروسى، مهما كان أميا ، يدرك جيدا إنه: إذا خسر لينين فسوف يكونوا مضطرين إلى إعادة الأرض إلى أصحابها السابقين. ولكن بعد كسب الحرب الأهلية، ثم إعادة عملية الإنتاج بأى شكل، ولو حتى بتدابير إجبارية، على سبيل المثال تشكيل كتائب السخرة، سوف يصمد البلاشفة فى السلطة خمس وعشر سنوات أيضا طالما لم تتفاقم التناقضات بين الطابع الاشتراكى لإنتاج المعامل والمصانع وبين الطابع الرأسمالى الخاص للإنتاج الزراعى. فروسيا منذ زمن بعيد، وإلى وقت قريب أيضا، ستظل دولة متخلِّفة فى العلاقات الصناعية حيث تشكِّل المنتجات الزراعية الجزء الأكبر من الدخل القومى. ولكن بعدم إمكانية التحكُّم فى هذا الجزء وتوزيعه والتصرف فيه، سيفقد البلاشفة السلطة إن عاجلا أو آجلا.

إن اتحاد الطبقة العاملة مع الفلاحين، والذى يتحدث عنه دائما لينين، أمر غير ممكن. فالفلاح فى حاجة إلى الأرض، وليست له مصلحة فى الاشتراكية، إذ أن العملية الزراعية بطبيعتها تجعل الفلاح أقرب إلى الرأسمالية منه إلى الاشتراكية. ومن حيث المبدأ، فهذا الاتحاد كان من المقدر له أن يكون ممكنا فى ظروف الديمقراطية والمساواة السياسية والتبادل العادى للسلع، ولكن ليس أبدا فى ظل زعامة البروليتاريا. فزعامة البروليتاريا تهين الفلاحين عن عمد ،وترى أن دورهم مجرد دور تابع. تلك النظرة إلى الفلاحين من جانب البلاشفة تعطى الأزمة الاقتصادية المشار إليها ظلالا سياسية.

حينما قام البلاشفة عام 1917 بتقديم تنازلات إلى الاشتراكيين الثوريين اليساريين وضعوا بذلك تحت أنفسهم قنبلة موقوتة: جعلوا الأرض مشاعا على الرغم من أن برنامجهم منذ البداية كان يتضمن تأميمها. ومن أجل اجتياز هذه الأزمة الأخطر- أزمة الطابع السياسى الاقتصادى- فالبلاشفة مضطرون إلى إعلان حرب شاملة على الفلاحين وإبادة الجزء الأفضل منهم ـ أولئك الذين يستطيعون ويريدون العمل. وسوف يملى الموقف الدولى والداخلى، وكذلك درجة فصل طبقات الفلاحين عن بعضها البعض والتى ستظهر فى تلك الفترة، على البلاشفة الشكل الذى يمكن أن يتم فيه عمل ذلك.

باجتياز الأزمة الثالثة يمكن للبلاشفة أن يصمدوا سنوات كثيرة إلى أن تحل الأزمة الرابعة ـ الأزمة الأيديولوجية، حينما تبدأ السلطة البلشفية فى التحلل من داخلها. ولكن عملية التحلل يمكن أن تمتد لعشرات السنين. ولأن روسيا لم تعرف أبدا الديمقراطية ، فسوف يتقبل الروس السلطة المطلقة التالية ـ سلطة البلاشفة ـ فى صبر وإذعان. هذه السلطة يمكن أن تكون مدعومة بديماجوجية ذكية وحاذقة وبجهاز متطور للقمع والترصد.

تنبؤاتى هذه بطبيعة الحال معرَّضة للتصحيح من قِبَل كافة المواقف المُحتَمَلَة والممكنة فى المستقبَل، تلك المواقف التى لا يمكن استباقها أو التنبؤ بها، والتى تتعلق بصاحب الجلالة ـ الظرف. وعلى سبيل المثال، عندما يتم دحر ألمانيا ـ وأنا لا أشك إطلاقا فى أنها ستندحر ـ فعلى أية صورة ستكون أوروبا ما بعد الحرب؟ ومَنْ سيخلف لينين فى حالة وفاته... إلخ أنا لا أستثنى أيضا إمكانية أن لينين كشخص مرن تكتيكيا وعارفا جيدا بالماركسية، يمكنه فى مراحل معينة إجراء تعديلات هامة فى اتجاه الابتعاد عن التحولات الاشتراكية المُقَرَّرَة، وهو ما سوف يستدعى عدم رضاء حثالة البروليتاريا. بيد أن البلاشفة بأيديولوجيتهم الموجهة إلى العناصر المنفصلة عن طبقاتها سوف يفشلون فى نهاية الأمر ـ وهذا ما لا أشك فيه. ذلك مسألة وقت لا أكثر. فلا أحد يمكنه أن

يُغَيِّر مسار تطور التاريخ! والشخصية البارزة لا يمكنها إلا أن تُعَجِّل أو تبطِّئ من هذا المسار.
ولينين سوف يبطِّئ من حركة التاريخ الروسى، ومن ثم فسوف يدخله بنفس العلامة التى دخله بها لجيدميترى .(42;

5. حول لينين والقادة الآخرين الملتوين

أعترف بأننى كنتُ أشك فى إمكانية الكتابة عن لينين، إذ أن كل واحد من أنصاره يمكنه أن يرى فى أول سطر سلبى "انتقام من العالم الآخر". ولكن لينين ـ تلميذى الذى لم يتعلم منى أى شئ سوى أن يكون خصمى الذى ستُكتَب عنه المجلدات فى المستقبل. ولذا كان من الممكن أن يبدو الأمر من ناحيتى مجرد جبن أو تخاذل إذا ما صمتُ عن الحديث فى هذا الموضوع. من الصعب فى مثل تلك الحالات أن يكون الإنسان موضوعيا. ومع ذلك من الممكن أن أعتبر إننى قد خُنْتُ نفسى لو تراجعتُ الآن عن الحقيقة.

لينين ـ بلا شك شخصية بارزة وعظيمة والكتابة عنه أمر صعب: فهو متعدد الأوجه، ومثل الحرباء يغيِّر لونه وقت الضرورة. هو مع الإنتلجنسيا ـ مثقف، ومع العمال، "عامل"، ومـع الفلاحين ـ فلاح. هو قانونى وصدفوى، منطقى وغير منطقى، بسيط ومعَقَّد، ثابت على مبادئه ومنحرف عنها، "ماركسى" وشبه ماركسى... إلخ وسوف يكون هناك ثمة انحراف من جانبى لو اتهمته بعدم معرفة الماركسية، وسيكون هناك كذلك خطأ ولو قلتُ إنه دوجمائى. لا، فلينين ليس دوجمائيا. إنه يعرف الماركسية. ولكنه، مع الأسف، " يطورها "بإصرار يستحيل على الفهم فى اتجاه أحادى ـ فى اتجاه التزييف وبهدف واحد ـ بهدف إثبات صحة استنتاجاته الخاطئة. ففى الماركسية لا يلائمه فقط أنه من الضرورى الانتظار إلى أن تنضج الظروف الموضوعية من أجل الثورة الاشتراكية.

لينين ـ نصف الدياليكتيكى الذى على قناعة تامة من أن الرأسمالية سوف تقوى وتتطور فى اتجاه إبراز عيوبها ومثالبها وأخطائها. ولكن ذلك خطأ كبير. ففى إطار عملية تطور قوى الإنتاج ظهرت ليونة نظام الرق، وخفَّت حدة الإقطاع، وبدأت الرأسمالية تلين أيضا. ويمكن إرجاع ذلك إلى الصراع الطبقى والنمو المتواصل للثقافة ووعى كل طبقات المجتمع بذاتها.

لينين - المُغْرِض الذى يرى هدفه ويسعى نحوه بثبات خارق دون أن يتوقف أمام أى عقبات. هو ذكى بشكل غير عادى، ونشيط، ولديه قدرة غير عادية على العمل، وليس متعجرفا وليس مقتصـــدا (ميركانتاليا)، ولكنه مفرط الأنانية بشكل مرضى ، وليس لديه أية قدرة على تحمل النقد. " كل ما لا يتوافق مع ما يراه لينين- مصيره اللعنة!" ـ هكذا أفصح ذات مرة مكسيم جوركى (43) . كل من لا يتفق معه ـ عدو محتمل لا يستحق التعامل بأبسط قواعد اللياقة والأدب.

لينين ـ الزعيم النمطى الذى يقمع إرادة المحيطين به ويخمد فيها غريزتها على البقاء. هـو جرئ، وحاسم، ولا يفقد أبدا رباطة جأشه، وصلب، وحذر، ومرن فى أساليبه التكتيكية، وهو فى الوقت نفسه لا أخلاقى، وقاس، ولا مبدئى، ومغامر بطبيعته. بيد أنه من الضرورى طبعا الاعتراف بأن لا أخلاقية لينين وقسوته لا تنبع من لا أخلاقيته الشخصية وقسوته، وإنما من جراء قناعته بأنه على حق. إن لا أخلاقية لينين وقسوته ـ هما المخرج الخاص من شذوذه وتفرده عن طريق إخضاع الأخلاقيات والمبادئ الإنسانية للأهداف السياسية. فلينين قادر على إهلاك نصف الروس من أجل أن يسوق النصف الثانى إلى المستقبل الاشتراكى السعيد. وهو من أجل الوصول إلى أهدافه يمكنه أن يفعل أى شئ حتى التحالف مع الشيطان إذا كان ذلك ضروريا ولقد قال الراحل بيبل (44) : "سأتحالف ولو مع الشيطان، بل وحتى مع جدته" (45)، ولكنه كان يضيف أن مثل هذه الصفقة

ممكنة فقط فى حالة إذا ما استطاع أن يسرج الشيطان أو جدته، وليس العكس. بيد أن تحالف لينين مع الشيطان سوف ينتهى بأن ينقض عليه الشيطان مثلما حدث فى يوم ما عندما انقضت الساحرة على خوما .(46)

هناك رأى شائع بأن السياسة-أمر قذر. ولكن مع الأسف، فأعمال لينين وتصرفاته الآنية تؤكد ذلك بصورة لا تخطئها العين. فالسياسة بدون أخلاقيات ـ جريمة. والإنسان الذى يتولى السلطة أو السياسى صاحب النفوذ يجب أن يلتزم فى تصرفاته وأعماله بالمبادئ الأخلاقية الإنسانية العامة قبل أى شئ آخر، لأن القوانين اللامبدئية والنداءات اللاأخلاقية والشعارات يمكنها أن تعود بمأساة على الدولـة والشعب. ولكن لينين لا يفهم ذلك، ولا يريد أن يفهم.

إن لينين يقوم بذكاء ومهارة بمعالجة اقتباسات ماركس وإنجلز معطيا إياها فى كثير من الأحيان تفسيرات مغايرة تماما . ولكن على ضوء مؤلفاتى حول الشخصية الفردية والجماهير فى التاريخ، فلينين لم يستوعب إلا أمرا واحدا فقط: فهو يمكنه كشخصية "استدعاها" التاريخ أن يفعل معه كل ما يريد. لينين مثال الشخص الذى حينما يعترف بحرية الإرادة، يرى تصرفاته مزيَّنة تماما فى اللون الناصع للضرورة. فهو مثقف بشكل كاف بحيث لا يعتبر نفسه نابليون، أما إن "المصير قد اختاره"، فهو بلا شك ما يؤمن به لينين. ومن وجهة نظر قوانين التطور الاجتماعى والضرورة التاريخية، فقد كان لينين ضروريا فقط حتى فبراير 1917-هو فى هذا الإطار كان يعتبر أمر طبيعى. وبعد ثورة فبراير التى تجاسرت على القيصرية وأزالت التناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، سقطتْ الحاجة التاريخية إلى لينين. ولكن الكارثة تتلخص فى أن الجماهير لم تكن تعرف ذلك، ولا تعرفه حتى الآن. فلقد حصلت الجماهير على حريات سياسية أكبر مما فى أوروبا الغربية. إلا أن أنصاف الجوعى والفقراء، مع ذلك، مضطرون إلى مواصلة الحرب دون أن يلاحظوا هم أنفسهم ذلك. ولو كانت الحكومة المؤقتة قد أنهت الحرب فى ربيع عام 1917، وحلَّت قضية الأرض بلا إبطاء، لِما ظلت لدى لينين أية فرصة للقيام بالثورة الاشتراكية، ولَكانَ اسمه قد شطب تماما من صفوف الذين يستدعيهم التاريخ. وهذا هو السبب فى أن انقلاب أكتوبر ووجود لينين فى الوقت الحاضر أمر غير طبيعى، وإنما صدفة قاتلة.

لينين ـ مُنَظِّر، ولكن أعماله بالنسبة للاشتراكى المثقف غير مثيرة للاهتمام : فهى ليست مدعومة بالأسلوب الرفيع، ولا بالمنطق، ولا بالفكر العميق، ولكنها بلا شك تترك انطباعا قويا لدى الإنسان قليل التعليم بتركيباتها البسيطة وجرأة الإقناع والثقة بصحتها وشعاراتها المثيرة والجذابة.

لينين ـ الخطيب الجيد والمجادل المتمكن الذى يستخدم جميع الوسائل من أجل إرباك منتقديه وخصومه وإجبارهم على الصمت، بل وحتى إهانتهم. ورغم سوء النطق لديه إلا إنه قادر على طرح أفكاره بوضوح، وعلى تملُّق الجمهور وإثارة اهتمامه، بل وحتى على تنويمه مغناطيسيا. وإلى جـوار ذلك، فهو قادر بشكل مدهش وسريع على تكييف حديثه بحيث يتناسب مع مستوى المستمع متناسيا أن النضال من أجل قضية عادلة لا يعنى تملق الجمهور والنزول إلى مستواه.

لينين ـ ذلك الإنسان الذى لا يعرف "الوسط الذهبى". "من ليس معنا ـ فهو ضدنا!" ـ هذه هى عقيدته السياسية. إنه فى سعيه للقضاء على خصمه ينزل إلى مستوى الإهانات الشخصية، ويصل إلى حد التجريح الخشن، ليس فقط فى المناقشات وإنما أيضا على صفحات الأعمال المطبوعة التى "يخبزها" بسرعة غير مسموح بها. ولقد كان العبقرى بوشكين يعيد الكتابة على ورق أبيض بما

فى ذلك حتى الرسائل. وكان ليف تولستوى العظيم يقوم بتصحيح رواياته أكثر من مرة. أما لينين فلم يكن يتقيد إلا ببعض التعديلات الطفيفة.

لينين ـ الذى يرفض، أو يفسِّر بمفهوم سلبى، العديد من المفاهيم الإنسانية العامة التى يعترف بها كل إنسان متحضر. فالليبرالية، على سبيل المثال، بالنسبة لأى إنسان متعلم ـ هى منظومة إيجابية لوجهات النظر، ولكنها بالنسبة للينين ـ ما هى إلا مجرد "دناءة ليبرالية". والديمقراطية البرجوازية بالنسبة لأى إنسان متعلم ـ هى ، وإن كانت ناقصة ، فهى على كل حال ديمقراطية . ولكنها بالنسبة للينين ـ "نفاق"، بينما العنف الطبقى غير المحدود ـ هو "ديمقراطية بروليتارية" على الرغم من أن الديمقراطية ـ أى سلطة الشعب ـ من حيث المبدأ لا يمكن أبدا أن تكون برجوازية أو بروليتارية، لأننا إذا أخذنا البرجوازية والبروليتاريا كل على حدة ـ سيكونوا مجرد جزء صغير من الشعب.

إن تولستوى صاحب المبادئ الإنسانية الأعظم والذى كان يرى أن العظمة الحقيقية غير ممكنة بدون الحب والخير والبساطة، لِما اعترف أبدا بعظمة لينين. فهل هو على حق؟ إن نابليون أيضا لم يكن يتميز لا بالحب ولا بالخير ولا بالبساطة، ولكنه بلا شك كان محاربا عظيما. ولقد عرف التاريخ شعراء عظماء، وموسيقيين عظماء، وعرف أيضا مجرمين عظماء. إذن فمن هو لينين؟ لينين ـ هو روبسبير القرن العشرين. ولكن إذا كان الأخير قد قطع رؤوس عدة مئات من الأبرياء، فلينين قطع رؤوس الملايين. فى هذا الإطار يحضرنى واحد من اللقاءات الأولى مع لينين والذى تم، على ما أعتقد فى صيف عام 1895م فى مقهى لاندولتLandolt ، وكان الحديث يدور حول أسباب سقوط ديكتاتورية اليعقوبيين. فقلتُ مازحا أنها انهارت لأن المقصلة كثيرا ما قطعت رؤوسا أكثر من اللازم. رفع لينين حاجبيه وقال فى جدية تامة: "لقد سقطت الجمهورية اليعقوبية لأن المقصلة نادرا ما قطعت رؤوسا أكثر من اللازم. إن الثورة يجب أن تكون قادرة على حماية نفسها!" عندئذ ابتسمنا فقط (حضر هذا اللقاء ب. لافارج (47);، وجول جيد، وعلى ما أعتقد أيضا ش. لونجيه (48)) لتطرف السيد أوليانوف. بيد أن المستقبل أثبت أن ذلك لم يكن مظهرا من مظاهر الشباب والحماسة، وإنما كان انعكاسا لوجهات نظره التكتيكية التى كان قد صاغها بدقة إلى هذا الحين. إن مصير روبسبير معروف جيدا، ولن يكون مصير لينين أفضل منه : فالثورة التى قام بها سوف تكون أشرس من ثور مينوس (49) ، وستأكل ليس فقط أبناءها، وإنما أيضا آباءها. ومع ذلك فأنا لا أتمنى له مصير روبسبير. فليحيا فلاديمير إيلتش إلى ذلك الوقت الذى سيفهم فيه بوضوح عدم صحة تكتيكاته.

الشخصية الثانية بعد لينين، من حيث القدرات والترتيب في حزب البلاشفة، هو تروتسكي: "يهوذا"، "أدنأ وصولي وأخس نفعي وانشقاقي"، "الخبيث النذل، الأسوأ من كل الانشقاقيين الآخرين"-هكذا وصفه لينين، وكان فعلا على حق. فقد كتب لينين فى أحد أعماله :"هناك لمعان شديد وضجيج كثير فى عبارات تروتسكى، ولكنها لا تنطوى على أى مضمون"-وفى هذا التقويم يكون لينين أيضا على حق. فأسلوب تروتسكي- أسلوب الصحفى النشط ذى اللسان الزلق-أكثر بساطة وسطحية من أن يكون عميقا ومعبِّرا. تروتسكي شخص متعجرف للغاية، وأناني، ولا مبدئي، ودوجمائي حتى أظافره. وقد كان تروتسكي "منشفي" و"خارج الانشقاق"، ولكنه الآن- صار "بلشفيا". وفى الواقع، فقد كان، وسيظل "فى قرارة نفسه اشتراكيا ديمقراطيا". إنه على الدوام موجود حيث يوجد المتقدمون والرابحون. ولكنه مع ذلك لا يتراجع أبدا عن محاولاته فى أن يصبح الشخصية الأولى. تروتسكي-خطيب رائع، ولكن أساليبه نمطية ومتشابهة، مجرد قوالب.

ولذلك فمن الممتع الاستماع إليه مرة واحدة فقط. إنه يمتلك طابعا متفجرا، وفى حالة النجاح يمكنه أن يفعل الكثير فى وقت قصير. ولكن فى حالة الفشل يمكنه أن يصاب باللامبالاة، بل وحتى بالارتباك والحيرة والتردد. وإذا اتضح أن الثورة اللينينية محكوم عليها بالفشل، فسوف يكون أول من يغادر صفوف البلاشفة. ولكن إذا اتضح أنها ستنجح، فسوف يفعل كل ما بوسعه من أجل إزاحة لينين. ولينين نفسه يعرف هذا، ومع ذلك فهما معا فى معسكر واحد، لأن لينين بحاجة إلى ديماجوجية تروتسكى وأفكاره حول الثورة المستمرة. بالإضافة إلى أنه أستاذ ماهر بقدرته على تجميع كل مَنْ يرغب تحت رايته. إن لينين -زعيم البلاشفة- لم يكن أبدا ليوافق على أن يكون زعيم أية مجموعة أخرى. أما بالنسبة لتروتسكى فأهم شئ لديه هو أن يكون زعيما، ولا يهم زعيم أى حزب. ولعل هذا الأمر سيكون السبب فى حتمية الصدام بين لينين وتروتسكى فى المستقبل (50).

إلى جانب تروتسكى يمكن وضع كامينيف ثم زينوفيف وبوخارين. كامينيف يعرف الماركسية، ولكنه ليس مُنَظِّرا. وهو من حيث أفكاره ومعتقداته - منشفى متردد بين المناشفة والبلاشفة، ولا يمتلك الإرادة الضرورية لأداء دور الشخصية السياسية المؤثرة. لهذا السبب تحديدا يسير وراء البلاشفة رغم إنه لا يتفق معهم فى الكثير من الأمور. أما زينوفيف - فهو بلشفى بدون اقتناع نهائى أو قاطع. وبالرغم من شكه الدائم فسوف يظل فى صفوف البلاشفة ما لم تتوفر الإمكانية على الانتقال إلى معسكر آخر بامتيازات. زينوفيف، مثل كامينيف، لا يمتلك الشخصية القوية، ولكنه من أجل أن يُقَوِّى وضعه الشخصى، قادر على تنفيذ أى أمر للينين. بوخارين - بلشفى مبدئى وراسخ العقيدة، وليس مفتقدا للمنطق والرأى الخاص وإمكانيات المُنَظِّر. لم يتفق فى كثير من الأحيان مع آراء لينين بشأن العديد من القضايا. ومن الممكن أن يصبح بوخارين بالذات - فى حالة وفاة لينين - هو الشخصية القيادية لديكتاتورية البروليتاريا. ولكن ليس من المستبعد، وأثناء حياة لينين أيضا، أن تقوم القافلة الثانية من البلاشفة بالتخلص من بوخارين والشخصيات الأخرى المذكورة مثلما فعل الجيرونديون فى زمنهم، وهذا هو الأمر الذى لن يعترض عليه لينين أبدا.

6. حول الدولة والاشتراكية ومستقبل روسيا

إننى أتفق مع فانديرفيلد (51) فى أن كلمة "الدولة" يمكن تفسيرها بمفهوم ضيِّق وواسع. وأتفق أيضا فى أن ماركس وإنجلز قد أسهما فى تفسير هذه الكلمة فى إطار المفهوم الضيِّق عندما تحدَّثا عن تلاشى الدولة. ولكن من غير الممكن أن ندينهما فى هذا الأمر: فالحديث عن الدولة بالمعنى الواسع للكلمة كان من الأمور السابقة لأوانها فى زمنهما. ولكن الدولة مازالت إلى وقتنا الحاضر هى أداة سيطرة طبقة على أخرى. ووظيفة الدولة كمُعَبِّر عن المصالح المدنية العامة ، وكمُنَظِّم عام، لم ترتسم ملامحها بشكل واضح إلا فى السنوات العشر الأخيرة فقط. أما الدولة كنتيجة لعداء التناقضات الطبقية، وكجهاز للهيبة السياسية، وكأداة لقهر طبقة لأخرى، سوف يبطل مفعولها. وسيأتى زمن تتلاشى فيه الطبقات وتنمحى الحدود. ولكن الدولة كشكل من أشكال تنظيم الشعب ـ مواطنو الكرة الأرضية فى المستقبل ـ سوف تبقى. زد على ذلك أن دورها سوف يتنامى باستمرار كنتيجة لتنامى القضايا والمشاكل العالميـة أو الكونية : التضخم السكانى على الأرض، استنزاف الموارد الأرضية، ندرة الطاقة، الحفاظ على الغابات والأراضى المزروعة، تلوث الكرة الأرضية والمياه والجو، الصراع مع الكوارث الطبيعية ... إلخ

بالقدر الذى ستتلاشى الدولة بالمفهوم الضيِّق، سوف يلعب العلماء الدور الأكبر فى توجيه هذه الدولة وإدارتها، أى أن البناء السياسى الفوقى سوف يتحول تدريجيا إلى بناء فوقى"للنفوذ العلمى". ولكن كل ذلك سيكون فى المستقبل . أما الآن فمن الضرورى السعى فى اتجاه أن يعكس البناء السياسى الفوقى مصالح الشغيلة وهو ما لا يمكن تحقيقه بالكامل إلا فى ظل الاشتراكية. وبالتالى فالثورة الاشتراكية بهذا المفهوم هى الهدف الذى تسعى إليه البروليتاريا. وينبغى أن نتذكر أثناء ذلك عدم وجود ولو ثورة واحدة قادت فى نهاية المطاف إلى تغَيُّرات راسخة ومتطورة على شكل طفرات فى العلاقات الاجتماعية والإنتاجية، وكل ما فى الأمر أنها سَرَّعَتْ من تطورها . فى هذا الإطار تعتبر مقدمة إنجلــز لطبعة "المانيفستو" باللغة الإنجليزية عام 1888م فى غاية الأهمية، حيث شدد على الدور المميز لعمليات التدرج الطبيعى للتطور الاجتماعى. الهام أيضا هو أن هذه الطبعة التى تمت ترجمتها من اللغة الألمانية إلى الإنجليزية تحت إشراف إنجلز المباشر، انتهت بشعار "يا شغيلة العالم، اتحدوا!" وهو الشعار الذى لا يتساوى أبدا مع شعار "يا عمال العالم ، اتحدوا!"(52;

إن الثورة الاشتراكية المنوط بها القضاء على الاستغلال والطبقية، لن تفعل لا هذا ولا ذاك فى المرحلة الأولى. زد على ذلك أن الثورة الاشتراكية السابقة لأوانها تنطوى على آثار سلبية خطيرة. إن أى شخص يعرف قوانين نفى النفى يمكنه بسهولة استنتاج أن دور البناء السياسى الفوقى يتغيَّر بصورة دورية ومن شكل إلى شكل، فأحيانا يقوى، وأحيانا أخرى يضعف. والجميع يعترفون بأن دور البناء السياسى الفوقى فى ظل الاشتراكية يجب أن يتزايد نظرا لأن الدولة ستأخذ على عاتقها وظائف تنظيمية إضافية: التخطيط والرقابة والتوزيع... إلخ وبهذا المفهوم يكون البناء السياسى الفوقى فى ظل الاشتراكية، والذى ينفى البناء السياسى الفوقى الرأسمالى، أكثر قربا إلى البناء الفوقى للإقطاع الاستبدادى منه إلى البناء الفوقى للرأسمالية. هذا الأمر يهدد بالخطر فى ظل عدم وجود الديمقراطية ـ وهى لن تكون موجودة كما أشرنا فى ظل الاشتراكية اللينينية ـ ويمكن أن

تتحول الدولة إلى إقطاعى أكثر شراسة وفظاعة من الحاكم الأوحد المستبد ، نظرا لأن الأخير ـ إنسان كان أو دولة ـ هو آلة قاسية وبلا شخصية. إننى على يقين من أن الدولة الاشتراكية اللينينية سوف تكون بالضبط ذلك الإقطاعى، وخاصة فى السنوات العشر الأولى، هذا طبعا إذا استطاع البلاشفة التغلب على الأزمات الثلاث الأولى التى تحدثتُ عنها أعلاه.

بعد قمع مقاومة البرجوازية، وهو الأمر الذى يمكن أن يتحقق بسهولة وبدون عنف إذا كانت البروليتاريا تشكل أغلبية السكان، يجب على ديكتاتورية البروليتاريا مساواة جميع الطبقات فى الحقوق، والوصول إلى سيادة القانون والعدالة وتحقيقهما. أما تلاشى الطبقات ـ فهذا أمر يتعلق بالمستقبل البعيد. ولذلك يجب على الدولة الاشتراكية قبل كل شئ تأمين السلام الطبقى والدفاع عن مصالح الشغيلة . ولكن فى روسيا المتخلفة التى لم تعرف أبدا الديمقراطية، والتى يسود فيها الفقر والجهل والأمية، لن يتمكن البلاشفة من تأمين لا هذا ولا ذاك.

إن التغييرات الثورية للتكوين الاجتماعى فى روسيا أمر غير ممكن إلا فى ظل التغيير الثورى لثقافة جميع طبقات المجتمع ووعيها. فى ظل هذا الظرف فقط يمكن تطوير قوى الإنتاج بصورة سريعة. بيد أن ذلك قد أصبح من المستحيلات: لأن ثقافة الشعب ووعيه هما وظيفة قوى الإنتاج وليس العكس. وفى حالة إذا ما قام البلاشفة بتعبئة الإنتلجنسيا، يمكنهم بالطبع التخلص من الأمية سريعا. ولكن، وهذا أولا، أن يتعلم الناس القراءة ـ فهذا لا يعنى أنهم سوف يصبحون مثقفين. ثانيا، أن يتعلم النـاس القراءة، فأول ما سيفهمونه هو ماهية ديكتاتورية البروليتاريا على الطريقة اللينينية (53) .

سوف يتحدد مستقبل روسيا بالفترة التى سيقضيها البلاشفة فى السلطة. وإن عاجلا أو آجلا فسوف تعود إلى الطريق الطبيعى للتطور. ولكن كلما طال وجود الديكتاتورية البلشفية، أصبحت هذه العودة أكثر صعوبة.

المجتمع الاشتراكى فى مفهوم ماركس وإنجلز ليس مجرد أمر يمكن إنجازه فى قرن واحد حتى فى الدول الغربية، فما بالنا بروسيا. ولذلك ففى المرحلة التاريخية الآنية فى روسيا يجب تنمية قوى الإنتاج، وتوسيع الحريات والحقوق السياسية، وتشكيل التقاليد الديمقراطية، ورفع ثقافة المواطنين، ونشر عناصر معينة من المبادئ الاشتراكية وترسيخها. ومن الضرورى إجراء تغييرات تدريجية لمؤسسات الدولة على أن تكون مصحوبة بتأثير دعائى سياسى اقتصادى على جميع طبقات المجتمع بهدف إثراء المواطنين الروس وجعل المجتمع الروسى ديمقراطيا ومؤمنا بالمبادئ الإنسانية. إن الدولة لا يمكن أن تكون عظيمة مادام مواطنوها معدمين**!** ففى ثراء المواطنين ـ ثراء الدولة**!** والعظمة الحقيقية للدولة لا تتحدد بمساحتها، ولا حتى بتاريخها، وإنما بالتقاليد الديمقراطية ومستوى معيشة المواطنين. وطالما سيظل المواطنون معدمين، ومادامت الديمقراطية ستبقى غير موجودة، فلن تأمن الدولة الهزات الاجتماعية، بل وحتى الانهيار والسقوط.

روسيا ـ دولة ضخمة تمتد آلاف الكيلومترات. ولذا فمن أجل التقدم السريع، يجب تطوير خطوط السكك الحديدية وخطوط النقل البحرى فى البلاد كلها. وقد قال مولتكه (54) : "ليس هناك داع لتشييد القلاع، ولكن مدوا خطوط السكك الحديدية**!**" وإذا كانت طرق السكك الحديدية هامة بالنسبة لألمانيا، فهى أمر ضرورى ولا غنى عنه بالنسبة لروسيا. بل ومن الممكن أن تكون السيارات والطائرات ذات أهمية بالغة فى المستقبل، ولذا يجب توجيه اهتمام خاص إلى تلك المجالات التقنية.

من الضرورى تطوير وسائل الاتصال، ووصول الكهرباء إلى كل مكان. فبدون الاعتماد على الكهرباء لن يمكن رفع إنتاجية العمل.

روسيا بحاجة ماسة إلى أيديولوجيا تقدمية قائمة على أفضل التقاليد القومية، وعلى تصورات حديثة حول الديمقراطية والعدالة الاجتماعية. ولن يضمن لروسيا الثبات والرسوخ والتطوير الطبيعى للاقتصاد سوى هذه الأيديولوجيا. لأن الأيديولوجيا التضليلية لا تلد ـ ولن تلد ـ إلا القادة المشوهين القذرين الذين بارتكازهم على الأيديولوجيا الدوجمائية، لن يكون بمقدورهم إلا عرقلة قوى الإنتاج، وإعاقة تكوين مجتمع حضارى مزدهر. وفى النهاية، فروسيا فى حاجة إلى سلطة مركزية وسلطات محلية قوية تعمل فى إطار دستور مرسوم الحدود بصورة دقيقة.

< ... > الحالة الآنية للقرية الروسية ـ هى العذاب الحى لمئات السنين من الحكم الفردى المطلق . يجب عمل كل شئ من أجل تعديل أوضاع القرية الروسية ، ومن أجل أن تختفى الجدران الأربعة المائلة تحت أسقف القش . يجب أن يكون فى كل قرية مدرسة، ومكتب بريد، وتلغراف، وهاتف، وفرع بنكى، ومؤسسة اجتماعية ، ومراكز تجارية وإدارية. هذا الأمر، بطبيعة الحال، يحتاج إلى عشرات السنين. ومع ذلك فهو أمر يمكن تحقيقه إذا التفتت الدولة إلى القرية، وإذا حصل الفلاحون علــى الأرض ـ وهو الأمر الذى لا يجب نسيانه ـ كوسيلة إنتاج تمتلك قيمة هامة وبالتالى لا يمكن أن تكون أداة للمضاربة كما أن الاستئجار طويل الأمد ـ المجانى بالنسبة للروس، والمدفوع بالنسبة لمواطنى الدول الأخرى ـ هو الشكل الوحيد الصالح لاستغلال الأراضى خلال عشرات السنين القادمة.

< ... > العمل هو مصدر جميع الثروات. فإذا كان حرا ومراعيا للمصلحة، سوف يتمكن الروس من التغلب بصورة سريعة على تخلف البلاد. وفقط بعد ذلك يمكن مناقشة مسألة الثورة الاشتراكية، والتحولات الاشتراكية التى من الممكن أن أحدد ثلاث مراحل من أجل الوصول إليها.

من الممكن أن يبدو للقارئ الواعى أن أفكارى وآرائى تنطوى على بعض التناقضات: فقد وضعتُ أعلاه إمكانية تحقيق ديكتاتورية البروليتاريا موضع الشك ، والآن أناقش التحولات الاشتراكية. ولكن مَنْ الذى قال أن التحولات الاشتراكية ممكنة فقط فى ظل ديكتاتورية البروليتاريا؟ فبتطوير المجتمع وارتفاع مستوى معيشة الجماهير وثقافتها ووعيها يمكن أن تتم التحولات الاشتراكية تدريجيا، وليس فقط بإرادة السلطة، بل ورغما عنها أيضا. وسيكون الانتقال إلى الاشتراكية فى مرحلة معينة من مراحل تطور قوى الإنتاج أمرا طبيعيا ولا مفر منه. وإذا كان التاريخ سيختار روسيا أولا من أجل تعبيد الطريق إلى الاشتراكية، فينبغى أن يتم ذلك بالتدريج وعلى مراحل.

المرحلة الأولى (25 ـ 30 سنة) ـ الاشتراكية المبكرة. فى تلك المرحلة يجب فقط مصادرة، وبصورة تدريجية، البنوك والمصانع والمعامل الضخمة، والمواصلات، وأراضى وأملاك الكنيسة (إذا كانت ستظل باقية إلى ذلك الوقت)، والمؤسسات التجارية الضخمة. وأن تكون إجراءات نزع الملكية على أساس الشراء الجزئى، أو الإيجار مدى الحياة، أو تعيين معاش تقاعدى، أو الحق فى الحصول على أرباح معينة. والإبقاء على المصانع الصغيرة والمتوسطة فى أيدى القطاع الخاص، ذلك إلى جانب البنوك والمعامل والمؤسسات التجارية ومجال الخدمات. وعلى أساس البنوك التى صودرت يمكن تأسيس بنك وطنى يراقب حركة أموال ونشاطات البنوك الخاصة. وعلى أساس المؤسسات التى صودرت يجب إنشاء قطاع حكومى يكون هدفه التدرُّب على الاقتصاد والتجارة

وتأمين العدالة الاجتماعية. ومن أجل زيادة اهتمام العمال وجذبهم يجب توزيع أسهم المؤسسات بشكل جزئى بينهم على أن تكون الأسهم غير خاضعة لعملية إعادة البيع، وأن تمنح العامل الحق فى الحصول على أرباح، ولكن ليس حق التملك. ويجب منح الفلاحين جزء من الأراضى المصادرة على أسس عادلة ارتكازا إلى الظروف المحلية، وإقامة مزارع نموذجية حكومية ضخمة على الجزء المتبقى.

يجب أن تكون الضرائب على المداخيل تصاعدية، ولكن لا يجب أن تخنق رجل الأعمال. ولا يجب أن تخضع المداخيل المستخدمة فى توسيع الإنتاج وبناء الطرق والأغراض العامة إلى الضرائب. وبطبيعة الحال، ففى هذه المرحلة يجب بشتى الطرق تشجيع تدفق رأس المال الأجنبى مع فرض الرقابة الصارمة على خروجه، وتوسيع التصدير ومراقبة الاستيراد. ويجب أن تعمل السياسة الجمركية على تحفيز المُنْتِج الروسى، وعلى رفع جودة السلع الوطنية.

إن هدف المرحلة الأولى ـ هو زيادة إنتاجية العمل، ورفع مستوى معيشة المواطنين الروس. فى هذه المرحلة يجب الانطلاق من الاعتراف بثلاث قوى : الدولة، ورجل الأعمال، والعامل. ويمكن اعتبار المرحلة الأولى قد انتهت عندما تتساوى إنتاجية العمل فى القطاع الحكومى مع إنتاجية العمل فى أفضل المصانع الخاصة، ويصل مستوى معيشة المواطن الروسى إلى مستوى المعيشة فى أوروبـا الغربية.

المرحلة الثانية (25 ـ 30 سنة) ـ مرحلة الاشتراكية الناضجة. حيث يتم انتزاع ملكية البنوك والمصانع والمعامل المتوسطة، وتجارة الجملة، ولكن مرة أخرى على أسس عادلة. وعلى سبيل المثال، يصبح مالك البنك مديره، وصاحب المصنع مديره... وهكذا. ولا يستثنى من ذلك عمليات الشراء الجزئى أو الإيجار مدى الحياة أو تعيين معاشات تقاعدية. وتنتقل الزراعة وتجارة التجزئة ومجال الخدمات إلى العمل على أسس جماعية. وسوف يدخل القطاع الحكومى إلى طور نموه التالى. فى هذه المرحلة يبقى الحال كما هو عليه بالنسبة لتشجيع تدفق رأس المال الأجنبى بينما تخفف الرقابة على خروجه. وتنتهى المرحلة الثانية عندما تتفوق إنتاجية العمل فى المؤسسات الحكومية على إنتاجية العمل فى أفضل مصانع الدول الغربية، ويتفوق مستوى معيشة المواطن الروسى على مستوى معيشة مواطن الدول الرأسمالية. وهذه هذه المرحلة ـ هو جعل الاشتراكية جاذبة لاهتمام جميع الشعوب. ومن الممكن فى هذه المرحلة أن تنتصر الثورة الاشتراكية السلمية فى الدول الأكثر تقدما.

المرحلة الثالثة (50 ـ 100 سنة) . يتم فيها نزع ما تبقى من الملكيات الخاصة ، وتصبح الوسيلة الاشتراكية للإنتاج هى السائدة . سيتلاشى الاستغلال تماما، وتنمحى الفوارق بين العمل العضلى والذهنى، وبين المدينة والقرية، وستتلاشى الطبقات تدريجيا. فى هذه المرحلة ينبغى تشجيع خروج رأس المال الأجنبى، وامتلاك الأوراق المالية للدول الأخرى، وإجراء تقارب اقتصادى مع الدول الأخرى بانتشار وتدفق مُتَبَادَل لرؤوس الأموال، وسيحل التشجيع والتحفيز الأخلاقى محل مثيله المادى. وهدف هذه المرحلة ـ مساواة مستوى معيشة مواطنى جميع الدول، وإنشاء قوى إنتاج كافية من أجل إعلان الشيوعية التى لا يمكن أن تكون طبعا آخر أطوار التطور الاجتماعى. زد على ذلك أن الشيوعية لن تكون خالية من التناقضات الاجتماعية. والتفكير على نحو آخر يعنى رفض الديالكتيك الهيجلى لذلك الموت الأبدى أو البعث ابدى. بيد أن التناقضات فى ظل الشيوعية

ستكون خالية من الأسس الطبقية والمادية، وستكون وليدة التناقضات الأخلاقية والقيمية والفكرية بين الشخصية الفردية والمجتمع.

لقد عرضتُ بإيجاز تصوراتى حول مراحل التحولات الاشتراكية من دون أن أدَّعى ـ طبعا ـ الحقيقة النهائية. فمهما كان الإنسان عبقريا، ومهما امتلك من ديالكتيك، من الممكن أن يخطئ فى تنبؤاته. إن اكتشافات العلم القادمة يمكنها أن تقلب جميع التصورات الآنية، ولكن كل ذلك ـ هو مشكلات الغد. أما الآن فيمكن قول الآتى بكل ثقة: روسيا بحاجة إلى توحيد القوى السياسية، والعديد من التكوينات والهياكل والإسهامات فى جميع مجالات الإنتاج، والمبادرة الخاصة، والهمة الرأسمالية، والمنافسة التى بدونها لن تكون هناك أية جهود لرفع الجودة أو التقدم التقنى، وبناء سياسى فوقى عادل، وإشاعة الديمقراطية والمبادئ الإنسانية. روسيا ـ ليست فقط دولة متعددة القوميات، ولكنها أيضا دولة متعددة الديانات، وهو الأمر الذى ينطوى على خطورة نشوء النزاعات القومية والدينية على حد سواء. وتفاديها لن يكون ممكنا إلا بالإصلاحات الإدارية الذكية، ورفع مستوى المعيشة، والمساواة فى الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وحرية العقيدة، والاحترام المتبادل للتقاليد القومية والثقافات واللغات. لقد كنتُ على الدوام مناهضا للدين، ولكننى لم أنف أبدا أهميته. فالدين كمنظومة للتصور والحالة النفسية والتأثير ينطوى على عنصرين. الأول ـ فلسفى ـ، وهو عنصر فكرى أو عقائدى سوف يتلاشى تدريجيا بنمو قوى الإنتاج وتطور العلوم. والثانى ـ اجتماعى أخلاقى ـ، وهو عنصر يستمر لسنوات طويلة ولا ينبغى الصراع معه. وأى دين يمر فى تطوره بمراحل محددة متشابهة. فالمسيحية التى مرت من خلال الجهل والظلامية مثلها مثل الإسلام أيضا، وهما ديانتان عالميتان، ولكن الديانات الأخرى يمكن أن تمر من خلال مراحل مشابهة. ولعل أفكار التتريك العام وإبادة الشعب الأرمنى هى الدلائل أو البوادر الأولية لذلك (55);. ومن أجل ألا يحدث هذا الأمر فى روسيا، يجب أن يتذكر الروس أن المسلم ـ ليس بوصرمان ، والمسيحى ـ ليس كافرا (56);. وينبغى الدعاية ليس إلى الإلحاد، وإنما إلى الاحترام المتبادل للديانات، وإلى كل ما يقرِّبها إلى بعضها البعض (57);. يجب تشجيع عملية تكوين الأسر المختلطة بشتى الطرق. وليس هناك أى ضرر من أن يكون الزوج مسلما، والزوجة ـ مسيحية، أو أن يكون الابن مسلما والابنة مسيحية أو العكس.

(58) < ... >

وفى النهاية أُقدِّم بعض الأسطر التى يجب ألا تنشر، وإنما تُنقَل إلى السلطة الديمقراطية المقبلة فى روسيا.

الهوامش

(1) كما هو معروف، ففى المؤتمر الثانى لحزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الروسى عام 1903م سمح بليخانوف فى إحدى خطبه بإمكانية حل المجلس التأسيسى إذا كان ذلك سيكون من مصلحة الثورة. وبعد حل المجلس التأسيسى فى 6 يناير عام 1918م قام البلاشفة بإدانة بليخانوف، مستندين أساسا إلى كلمته، بأنه خان ماضيه الثورى. أما الذين كانوا ضد حل المجلس التأسيسى وعلى رأسهم ف. تشيرنوف، فقد اتهموه بأنه كان معلم البلاشفة وأستاذهم. انظر أيضا الهامش رقم 8.

(2);نيكولاى فالنتينوفيتش بليخانوف (1852م - 1928م) أحد اخوة جيورجى فالنتينوفيتش الكبار من أبيه. درس فى كلية فورونيج الحربية، وبعد ذلك أنهى دراسته فى مدرسة وارسو العسكرية لسلاح المُشاة. قضى فى الخدمة 27 عاما. قدَّم استقالته عام 1898م وهو برتبة عقيد. وكان العام الدراسى 1868م - 1869م عاما دراسيا مشتركا للأخين فى كلية فورونيج الحربية;

(3);نارودنيك بمعنى شعبى. وهى من كلمة "نارود" الروسية - أى شعب . ومنها "نارودنيتشيستفو"، أى الشعبية - وهى حركة اجتماعية سياسية بين مثقفى روسيا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ونارودنيك هو أحد أنصار هذه الحركة - المترجم.

(4) ميخائيل ألكسندروفيتش باكونين (1814م - 1876م) ثورى، أحد منظرى الفوضوية، وأحد أيديولوجى ثوار النارودنيتشيستفو. كان عضوا بحلقة ستانكوفيتش فى ثلاثينات القرن التاسع عشر. رحل إلى خارج روسيا من عام 1840م، وشارك فى ثورات 1848م - 1849/ فى باريس ودرزدن وبراج. وفى عام 1851م ألقت السلطات النمساوية القبض عليه وسلَّمَته إلى الحكومة الروسية . سجن بمدينة بيتروبافلوفسك، وبعد ذلك فى قلعة شليسيلبورجسك. فر من السجن عام 1861م. أسس جمعية سرية باسم "الأخوية الأممية". وفى عام 1868م أصبح عضوا بالأممية الأولى ووقف ضد كارل ماركس وأنصاره. له بعض المؤلفات منها "الدولة والفوضى" - المترجم;

(5) بعد مظاهرات قازان الشهيرة فى 6 ديسمبر 1876م، كان بليخانوف مضطرا إلى الاختفاء عن عيون البوليس، وصار سريا. ووصفت زوجته روزاليا ماركوفنا بليخانوفا طريقته فى النوم كالآتى: "كان على الدوام تحت وسادة بليخانوف المسدس والقبضة الحديدية، تحسُّبا لحالة إذا ما ظهر البوليس فجأة فى الغرفة، فلا يجب أن يقع فى أيديهم بدون مقاومة " (ر . م . بليخانوفا. الحلقة الفرعية لـ "الأرض والحرية" // مجموعة "تحرير العمل". عام 1926م، المجلد الرابع، ص 112);

;(6) سيرجى جيناديفيتش نيتشايف (1847م - 1882م) أحد نشطاء الحركة الثورية الروسية. مؤسس جمعية سرية باسم "التصفية الشعبية". مؤلف كتاب "تأهيل الثورى". استخدم طرق التضليل والتآمر. قام عام 1869م بقتل أحد الطلاب فى موسكو بسبب الشك فى خيانته، وفر إلى خارج روسيا. قبضت عليه السلطات السويدية عام 1872م وسلمته إلى الحكومة الروسية. وفى عام 1873م حكم عليه بالسجن لمدة 20 عاما. مات بالسجن - المترجم;

(7);لويس أوجست بلانكى (1805) (Blanqui;م - 1881م) شيوعى فرنسى مثالى شارك فى ثورتى عام 1830م و 1848م. قام بقيادة الجمعيات الجمهورية السرية فى ثلاثينات القرن التاسع عشر. تم انتخابه عضوا بكومونة باريس عام 1871م، وكان يربط نجاح الثورة الاجتماعية بتآمر المنظمات الثورية التى ـ على حد رأيه ـ سوف تنضم إلى الجماهير الشعبية فى اللحظة الحاسمة ـ المترجم.

(8); ليف ألكسندروفيتش تيخوميروف (1852م ـ 1923م) أحد قادة حزب "الإرادة الشعبية". أصابه الإحباط فى الثورة والاشتراكية بعد هجرته إلى خارج روسيا. حصل على عفو من القيصر. وردا على ذلك ألَّفَ كتابا بعنــوان "لماذا لم أظل ثوريا". وفى عام 1889م نشر كتابه بعنوان "مدافع جديد عن حكم الفرد المطلق أم كارثة السيــد ل. تيخوميروف";

(9);بيوتر نيكيتيتش تكاتشيوف (1844م ـ 85/1886م) كان من أنصار الأساليب التآمرية فى النضال، وأحد أيديولوجى النارودنيتشيستفو. وكان أيضا كاتبا وأحد أعضاء الحركة الثورية الروسية عام 1860م. عمل بمجلــة "الكلمة الروسية" و"القضية". هاجر إلى خارج روسيا عام 1873م ـ المترجم.

(10) منظمة "إعادة التقسيم الأسود" ـ منظمة نارودنيكية فى بطرسبورج (1879م ـ 1882م) ظهرت بعد الانشقاق الذى حدث فى منظمة "الأرض والحرية" وحافظت على برنامجها: نفى النضال السياسى والعنف، والدعاية فى أوساط العمال . وكان المركز هو حلقة بطرسبورج (بليخانوف وستيفانوفيتش ودييتش ، وآخرون);وكانت لها فروع فى موسكو وكييف وأوديسا وخاركوف. أصدرت صحيفة بعنوان "إعادة التقسيم الأسود" فى جنيف ومينسك. وصدر من هذه الصحيفة خمسة أعداد فقط ـ المترجم;

(11) جول جيد (1847م ـ 1922م) أحد أشهر نشطاء الحركة الاشتراكية الفرنسية والحركة الاشتراكية الدولية والحركة العمالية، وأحد مؤسسى حزب العمال الفرنسى. حدث تعارف بليخانوف معه فى مطلع عام 1881م بفندق سان ميشيل حيث كان يقضى الزوجان بليخانوف بعض وقتهما;

(12);مقطع من كلماته المعروفة فى رسالته إلى ن. أ. روباكين: "أنا أتمسَّك بوجهة نظر أفكار جماعة "تحرير العمل". وأنا فى كل مرحلة زمنية محددة أكون أقرب إلى واحدة من تلك الجماعات الاشتراكية ـ الديمقراطية التى تكون قريبة من هذه الأفكار. وأرى أن تقدُّم حزبنا يتوقف على الفهم الجيد جدا لأفكار جماعة "تحرير العمــل" (التراث الفلسفى ـ الأدبى لبليخانوف. الجزء الأول. موسكو. 1973م ص 248);

(13);وقف كل من كارل ماركس وفريدريك إنجلز فى بداية الثمانينات إلى جوار منظمة "الإرادة الشعبية" مستندين إلى تقديراتهما بخصوص إمكانية الثوار الذين ينتمون إلى مختلف الهويات والطبقات الاجتماعية البسيطة، والذين يمارسون الأعمال الذهنية البسيطة ويحملون أفكارا ثورية ديمقراطية، فى إشعال الثورة فى روسيا. بيد أن بليخانوف كان يرى أن الحركة الثورية فى روسيا لا يمكنها أن تنتصر إلا كحركة ثورية عمالية;

(14) السيد ف. تشيرنوف يؤكد فى " قضية الشعب "أن البلاشفة أبنائى. وقد ذكَّرَنى ذلك بما كان يقوله فيكتور آدلر بين المزاح والجدية : "لينين ـ ابنكم". ولكننى كنتُ أرد عليه بقولى:" "إذا كان

ابنى ، فمن الواضح أنه غير شرعى ". ومازلتُ أعتقد حتى الآن أن تكتيك البلاشفة هو مجرد استنتاج غير شرعى وغير قانونى إطلاقا من الأوضاع التكتيكية التى كنتُ أنادى بها مستندا إلى نظرية ماركس ـ إنجلز" (ج. ف. بليخانوف. عام فى الوطن. باريس، 1921م. المجلد الثانى. ص 268);

(15);برنشتاين (1850م - 1932م) أحد قادة الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان الذى قام بالهجوم على الماركسية بعد وفاة إنجلز;

سترويف (1871م - 1944م) فى البداية كان ماركسيا ثم أصبح فيما بعد أحد قادة نقاد الماركسية.

(16);كان بليخانوف فى ذلك الوقت بداية من 8 يناير 1918م متواجدا فى المصحة بمدينة بيتكياروف (انظر رسالة بليخانوفا إلى لوبيموف بتاريخ 22 يناير 1918م // الأرشيف التاريخى، 1998م، رقم 3، ص 139 .

(17);ما كتبه بليخانوف فى مقال بعنوان "كل شئ حول ذلك أيضا": "كان هناك زمن عندما كان أيديولوجيو البرجوازية يفكرون بأن أى تنازل يقوم به الرأسمالى للعامل الأجير يتسبب فى خسارة للرأسمالى . وثمة فكرة كانت سائدة آنذاك بأن يوم العمل الطويل والأجر المنخفض هو شرط ضرورى من أجل ضمان مستوى عال للقيمة الزائدة للرأسماليين. ورويدا رويدا أخذت خبرة الدول الرأسمالية الطليعية تدحض تلك الأخطاء لمُنَظِّرِى الاقتصاد البرجوازى ومديريه. لقد اتضح أن قوة العمل "الرخيصة" هى أغلى "الغالى". واتضح أن العامل الأجير الذى يعيش فى ظروف مادية أفضل، هو أكثر إنتاجا (حتى من وجهة النظر الرأسمالية الخالصة) . وذلك يُعتبر الآن من أبجديات الحقائق فى العلوم الاقتصادية" (الوحدة ، رقم 111 ، بتاريخ 9 أغسطس 1917م) ;

;(18) يستخدم بليخانوف كلمة "الروس" هنا بالمفهوم المرتبط بـ "تاريخ الفكر الاجتماعى الروسى" (انظر بليخانوف، الأعمال الكاملة، المجلد 20، عام 1925م ، ص 95. والمجلد 21، عام 1925م، ص 16،18، 24).

جاءت كلمة "الروس" هنا بمعنى جميع المواطنين الروس وغير الروس الذين يعيشون فى روسيا حتى وإن كانوا من أصل غير روسى. والكلمة تستخدم فى الوقت الحاضر بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بنفس المعنى بصرف النظر عن القومية أو الدين، وتنطبق على جميع المواطنين الذين يملكون مواطنة روسيا الاتحادية ـ المترجم.

(19);اليعقوبيون ـ هم أعضاء النادى اليعقوبى أثناء الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر والذين بقوا فيه بعد خروج الجيرونديون (مجموعة من الثوريين الفرنسيين الذين كان أغلب قادتهم من مقاطعة جيروند) عام 1792م. وكان قادة اليعقوبيين هم روبسبير ومارات ودانتون وسان جوست ـ المترجم.

(20);بلانكى (1805م - 1881م) اشتراكى فرنسى تآمرى. باكونين (1814م - 1876م) فوضوى متمرد. وعموما فقد توقَّف بليخانوف كثيرا فى مؤلفاته عند نقد التكتيك;

;(21) من الكلمة الألمانية (Lumpen;)، أو بالإنجليزية (Lumpish Proletariat;)، وهو مصطلح أورده كارل ماركس للإشارة إلى الشرائح الدنيا من الطبقة العاملة (حثالة البروليتاريا ، أو البروليتاريا الرثة) ـ القاموس الموسوعى الكبير ، سانت بطرسبورج ، 1998م .

(22);دوميلا نيوينهيوس 1846);Nieuwenhuisم - 1919م) اشتراكى هولندى ، ومحرض أثناء الحرب . انحاز إلى الفوضويين بعد مؤتمر زيورخ الدولى عام 1893م ، وتم طرده من الأممية الثانية عام 1896م .

(23);ج . إروى (1871م - 1944م) اشتراكى فوضوى فرنسى;

(24);ر. جريم (1881م - 1956م) أحد قادة الاشتراكيين الديمقراطيين السويسريين;

(25); اتفاقية " سلام برست " - وهو الاسم الرسمى لاتفاقية سلام برست - ليتوانيا عام 1918م. ففى 3 مارس 1918م تم عقد اتفاقية سلام بين روسيا السوفيتية وألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا وتركيا، حيث استولت ألمانيـا;;;(بالضم) على بولندا ودول البلطيق وجزء من بلاروسيا وماوراء القوقاز، وحصلت على تعويضات تقدَّر بستة مليارات مارك. وأقدمت روسيا السوفيتية على عقد هذه الاتفاقية من أجل الحفاظ على السلطة السوفيتية. وكانت مجموعة " الشيوعيين اليساريين" وعلى رأسهم بوخارين ضد الاتفاقية، وكانوا على استعداد للتضحية بالسلطة السوفيتية. ولكن السلطة السوفيتية قامت بإلغاء هذه الاتفاقية فى 13 نوفمبر عام 1918م بعد قيام الثورة فـى ألمانيا - المترجم;

(26);بيير سفينهوفود 1861);Svinhufvudم - 1944م) شخصية سياسية برجوازية فى فنلندا . شغل منصب رئيس وزراء فنلندا فى الفترة من نوفمبر 1917م إلى يناير 1918م. زار بطرسبورج فى 31 ديسمبر 1917م حيث حصل على الاعتراف باستقلال فنلندا بتوقيع لينين، وفى مقابل ذلك قام سفينهوفود وأنصاره فى الحكومة الفنلندية بالاعتراف بأن السلطة السوفيتية هى السلطة الشرعية فى روسيا. وكان من أنصار تدخل الجيش الألمانى فى أراضى فنلندا. أصبح رئيسا للحكومة البيضاء فى أبريل عام 1918م. وفى 30 أكتوبر 1918م أصبح رئيس وزراء فنلندا ورئيسها حتى عام 1937م - المترجم;

(27) المقصود بـ " أنصاف اللينينيين " - كل مَنْ رفض استنتاجات لينين وقبل مقدماته وبذلك ساعده - كما يرى بليخانوف - على تطبيق استنتاجاته وإثباتاته فى الواقع العملى. كان أولئك ، فى المقام الأول ، هم المناشفة الذين كانوا يشكِّلون أغلبية مجلس بطرسبورج، ولكن ارتبط بهم أيضا الاشتراكيون الثوريون الذين كانوا ضمن هذه الأغلبية. وقد أورد بليخانوف عدة أسماء منها إ. تسيرتيل، م. سكوبيليوف، ن. تشيخيدزه، ف. تشيرنـــوف (انظر بليخانوف. عام فى الوطن. المجلد الثانى، ص 55، 162);

(28) هذا هو بالضبط السؤال الذى طرحه لينين عندما قرأ " ملاحظات ثورى " لسوخانوف;

(29) سوف تأتى إضافات إلى هذه النقطة فى الجزء الخامس من الوصية;

(30) هى ابنة بريام وهيكابى فى الميثولوجيا اليونانية . وكانت لديها قدرة عالية على التنبؤ بأحداث المستقبل - المترجم.

(31) كان لينين قد طرح إقامة السخرة على مستوى عموم البلاد كلها ، وذلك فى ديسمبر 1917م فى مشروعه حول إعلان تأميم البنوك;

(32) هذه واحدة من عبارات بليخانوف التى وردت كثيرا فى مؤلفاته عام 1917م - انظر على سبيل المثال مقـــال " الدائرة تنطبق " (" الوحدة "، العدد رقم 157 ، بتاريخ 6 ديسمبر 1917م

;)

(33);هى الفكرة التى صرَّح بها بليخانوف لأول مرة فى أول أعماله الماركسية " الاشتراكية والنضال السياســـى " بخصوص توجهات منظمة " الإرادة الشعبية " فى إقامة " مساواة اقتصادية " عن طريق " تنظيم الإنتاج القومــى " (انظر بليخانوف ، الأعمال الكاملة ، المجلد الثانى ، عام 1922م ، ص 81);

" إمبراطورية الإنكيين " ـ هو اسم الدولة الثيوقراطية ـ الاستبدادية على النمط الشيوعى التى قامت فى بيرو قبل أن تستولى عليها أسبانيا . وقد أجاب كلود باتو حفيد بليخانوف عن السؤال بخصوص ما يعرفه عن وصية بليخانوف السياسية، بقوله: " لقد سمعتُ عنها من جدتى (أى من روزاليا ماركوفنا) ، وكل ما أعرفه هو أن جـــدى كتب: " لو صمد لينين فى السلطة طويلا، فسوف يحدث كما حدث لإمبراطورية الإنكيين " (الترجمة الحرفية من الإنجليزية إلى الروسية لرسالة كلود باتو إلى ن . إ . نيجيجورود بتاريخ 23 نوفمبر 1997م);

(34) عبارة شائعة فى أعمال بليخانوف . و" أدوية موريسون " (Pilula;) كانت تُعَد إحدى وسائل العلاج الشافية من جميع الأمراض. (انظر بليخانوف . الأعمال الكاملة. المجلد الثانى، عام 1926م، ص 22) .

(35) فى 1 يناير 1918م تم إطلاق الرصاص على السيارة التى كان يستقلها لينين فى طريق عودته من لقاء خطب فيه أمام جنود الجيش الأحمر الذين كانوا فى طريقهم إلى الجبهة. والآن أصبح معروفا أن أحد العاملين فى ميليشيا بطرسبورج قد شارك فى محاولة الاغتيال (انظر نيكولاى زينكوفيتش. الاغتيال والتمثيل: من لينين إلى يلتسين. موسكو، 1998م، ص 6). والذى قام بإنقاذ لينين فى ذاك الوقت هو فريتس بلاتين الذى كان جالسا إلى جواره فى السيارة، حيث أنزل رأس لينين إلى أسفل وأُصيب هو إصابة طفيفة فى إصبعه. وقد رأى بليخانوف فى هذا الأمر مجرد تمثيلية تتيح البدء فى مكافحة المؤسسات الديمقراطية، وعلى الأخص عدم انعقاد المجلس التأسيسى.

(36) من عبارات بليخانوف الشائعة.

(37) فى بداية مايو عام 1917م تم نشر رسالة بحار الأسطول البلطيقى ستيبان كوكوتكو;فى جريدة بليخانـــوف "الوحدة"، والذى اتهم فيها بصيغة خشنة ومتحرشة بليخانوف بأنه باع ضميره للبرجوازية. وقام بليخانوف بالرد على تلك الرسالة بالآتى: "عندما أعلنتُ عن "اختلافنا"، شاعت فكرة بأننى بعتُ نفسى للحكومة المؤقتة، وهى الفكرة التى كان يتم تقبلها حتى فى أوساط المثقفين. ولكنهم الآن يرون إننى قد بعتُ نفسى لإناس مشبوهين جدا. ومن هنا نستنتج أن روسيا، على أية حال، تسير إلى الأمام على الرغم من أنه ليس بتلك السرعة المرغوبــة". ("الوحدة"، العدد رقم 31، بتاريخ 5 مايو 1917م). وفى 31 أكتوبر 1917م قامت مجموعة مسلحة بتفتيش شقة بليخانوف: كانوا يبحثون عن أسلحة. ومن هذه الوصية يصير من المعروف أن الذى قاد هذه العملية هو البحار الذى اشتبه فيه بليخانوف بأنه هو نفس الشخص الذى بعث بالرسالة إلى هيئة تحرير "الوحدة";

(38) ن. د. أفكسينتيوف (1878م ـ 1943م) أحد قادة حزب الاشتراكيين الثوريين. أصبح بعد ثورة فبراير عضوا باللجنة التنفيذية بمجلس بطرسبورج، ورئيس اللجنة التنفيذية لمجلس عموم

روسيا للأعضاء الفلاحين. وفى يوليو ـ سبتمبر أصبح وزيرا لداخلية الحكومة المؤقتة. وبعد ذلك أصبح عضوا بالمجلس التأسيسى. وفى عام 1918م هاجر إلى خارج روسيا;

(39) اجتماع موسكو الحكومى ـ هو الاجتماع الذى دعت إليه الحكومة المؤقتة فى الفترة من 12 إلى 15 أغسطس 1917م فى موسكو، وتحدث فيه بليخانوف يوم 15 أغسطس;

(40);ف. م. بوريشكيفيتش (1870م ـ 1920م) من أنصار الحكم الملكى. تم القبض عليه أثناء قمع حركة كيرينسكى ضد البلاشفة فى 3 نوفمبر 1917م بتهمة التآمر بهدف إقامة الحكم الملكى فى روسيا. ولكن المحكمة قامت بنفى التهم الأساسية الموجهة إليه. وفى 3 يناير 1918م قام المفوض القضائى الشعبى الذى ينتمى إلى الاشتراكيين الثوريين اليساريين إ. ز. شتينبرج بالتأثير لصالحه من أجل تخفيف الحكم، وبالفعل حُكِم عليه بأربعة سنوات فقط، وتم العفو عنه وإخلاء سبيله فى 17 أبريل 1918م بمناسبة 1 مايو;

(41);أ. ألكسندروفسكى بحار المدمرة "نوفيك". ذهب فى 7 مايو 1917م إلى هيئة تحرير صحيفة "الوحدة" وقدَّم اعتذاره بالنيابة عن البحارة جميعا إلى بليخانوف عن الإهانة التى ألحقها به البحار س.كوكوتكو الذى أطلق عليه "أحد ضحايا حزب الهواة الشعبيين، والذى كتب على راياته "انتزع!" ("الوحدة"، رقم 44 ـ 45، بتاريخ 20 ـ 21 مايو 1917م);

(42);لم يتم العثور على أى إشارات عن لجيديمترى فى مؤلفات بليخانوف. ففى كتابه "تاريخ الفكر الاجتماعى الروسى" وصف بليخانوف فترة التدخل البولونى ـ الليتوانى;;(أو فترة سموتا) بأنها فترة ركود للفكر الاجتماعى فى روسيا (انظر بليخانوف. الأعمال. المجلد 20 ، 1925م، ص 198). " أما ما يخص حالة قوى الإنتاج ، فإن سموتا كان بإمكانها تغيير هذه الحالة ليس إلى الأفضل، وإنما فقط إلى الأسوأ " (نفس المرجع، ص 205). " خلال المائة عام التالية للـ " سموتا " ظلت العلاقات الداخلية للدولة الموسكوفية تكتسب أكثر فأكثر ذلك الطابع الذى تميَّز به طغاة الشرق (نفس المرجع، ص 246);

((لجيديمترى الأول (؟ ـ 1606م) قيصر روسى بدأ الحكم من عام 1605م. ظهر فى بولونيا عام 1601م باسم ابن إيفان جروزنى الرابع ـ ديمترى. وفى عام 1604م وصل مع الفرق البولونية ـ الليتوانية إلى الحدود الروسية، ووقف إلى جانبه جزء من المدنيين والقوزاق والفلاحين ، وتم قتله فى مؤامرة;

لجيديمترى الثانى "ديمتري الكذاب"(؟ ـ 1610) لُقِّب بلص توشينا، وكان غير معروف النشأة. قدَّم نفسه عام 1607م على أنه لجيديمترى الأول الذى تم إنقاذه. فى الفترة من عام 1608م إلى 1609م قام بإنشاء معسكرات توشينا فى ضواحى موسكو حيث حاول الاستيلاء على العاصمة من هناك. ومع بداية التدخل البولونى هرب إلى كالوجا حيث تم قتله هناك;

سموتا "الفتنة" أو "فترة الفتنة" (-مصطلح يعنى أحداث نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر. وهى فترة أزمة الحكم فى روسيا والتى فسَّرَها العديد من المؤرخين بأنها مثل الحرب الأهلية، وصاحبها ظهور العديد من المدَّعين، مثل لجيدميترى "دميتري الكذاب" الأول والثانى، الذين قادوا المظاهرات والاعتصامات. وكان هذا المصطلح شائع الاستخدام فى أعمال الكتاب الروس فى القرن السابع عشر ـ أ . ص));

(43);رأى جوركى فى لينين: "إن الفاعل الدائم لجميع المشاحنات والمخاصمات هو لينين ذاته، وذلك يحدث لأنه غير مترو بصورة تعصبية، ومقتنع تماما بأن الجميع على خطأ ما عداه هو نفسه. وكل ما لا يتوافق مع ما يراه لينين ـ مصيره اللعنة!" (ن . فالينتينوف. بورتريه لم يكتمل. موسكو، 1993م، ص 33);

(44);أوجست ببيل 1840);Bebel م ـ 1913م) أحد مؤسسى الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى وقائده، وقائد الأممية الثانية ـ المترجم;

(45) كثيرا ما كان لينين يستخدم هذه العبارة فى مناقشاته بخصوص مسألة التكتيك. والحديث يدور حول كلام ببيــل "إنه من أجل الوصول إلى هدفه ـ أى التحرير الاجتماعى للطبقة العاملة ـ فهو على استعداد لعقد صفقة مع الشيطان ومع جدته أيضا" (بليخانوف. الأعمال. المجلد 5، ص 124).

(46) الفيلسوف خوما بروت إحدى شخصيات جوجول الروائية.

(47) بول لافارج (1842م ـ 1911م) أحد مؤسسى حزب العمال الفرنسى ، وأحد الشخصيات البارزة فى الحركة العمالية الفرنسية والدولية، وزوج لاورا ماركس ـ ابنة ماركس الثانية;

(48) شارل لونجيه (1839م ـ 1903م) صحفى فرنسى وشخصية سياسية، وعضو المجلس العام للأممية الأولى، وزوج الابنة الكبرى لكارل ماركس ـ جينى ماركس، وأحد الشخصيات القيادية لحزب العمال الفرنسى.

(49) Minotaurus;أو ثور مينوس فى الميثولوجيا اليونانية، وهو وحش بنصف ثور ونصف إنسان ـ المترجم.

(50) قيل ذلك عن تروتسكى فى أول لقاء عام 1902م فى لندن. ولا شك فى أن تروتسكى مذنب أيضا فى الأمور الرئيسية التى أذنب فيها لينين. ولكن إذا كان بليخانوف قد وجد بعض الصفات الإيجابية لدى لينين وأطلق عليـــه "الشخصية العظيمة البارزة"، فهو فى ذات الوقت لم يجد لدى تروتسكى سوى الصفات السلبية. إضافة إلى، وكما اتضح فيما بعد، أن تنبؤات بليخانوف وتوصيفاته حول تروتسكى لم تتحقق جميعا. وبالطبع، فبليخانوف لم يكن يمكنه أن يعرف أن تروتسكى سوف يكون بذرة واحدة من أزمات البلشفية التى تحدَّث عنها بليخانوف، وهى "الأزمة الأيديولوجية" التى ستعمل على تحلل السلطة البلشفية من داخلها;

(51) إميل فانديرفيلد 1866);Vandervelde م ـ 1938م) اشتراكى بلجيكى أصبح عضوا بالبرلمان فى عـام 1894م . وفى عام 1900م صار مدير المكتب الاشتراكى الدولى للأممية الثانية. وفى عام 1914م دخل إلى الحكومة حتى عام 1937م حيث شغل طوال هذه الفترة مناصب وزارية كثيرة ـ المترجم;

(52) مع الأسف، ففى ترجمات مقدمة إنجلز للطبعة الإنجليزية "للمانيفستو" عام 1888م لم تتم الإشارة فى الفترة السوفيتية إلى عمليات التدرج الطبيعى للتطور الاجتماعى للمجتمع، ولم يتم تغيير شعار "يا عمال العالم ، اتحدوا!" وهذا يعنى أن العلوم التاريخية والحزبية السوفيتية قد قامت بتزييف وجهات نظر إنجلز الأخيرة;

(53) وبمعنى آخر، فكلما سارت عملية التغيير فى الثقافة والوعى بسرعة ونجاح، أصبحت فرص الوجود أقل بالنسبة لتلك الدولة التى ـ فى ظل غياب القاعدة الاقتصادية ـ تدخل إلى التحولات الاشتراكية من أعلى بادئة من التعليم والثقافة والوعى. ولن يكون تزايد ثقافة الشعب ووعيه، قبل أى شئ، سببا فى بناء الاقتصاد الاشتراكى بقدر ما سيكون سببا فى فضح أسطورة الطابع الاشتراكى للثورة الاشتراكية والنظام الاشتراكى فى روسيا;

(54) من الواضح أن بليخانوف يقصد هلموت مولتكه ـ الأكبر (1800م ـ 1891م)، كونت ، جينرال فيلد مارشال، رئيس هيئة الأركان العامة البروسية، وبعد ذلك رئيس هيئة الأركان العامة الألمانية;

(55) لا يقصد بليخانوف بذلك الشعوب التى كانت فى إطار الإمبراطورية العثمانية ، وإنما يقصد ما حدث عام 1915م للأرمن الذين يعيشون فى تركيا نفسها;

(56) أمور خشنة فى الديانتين، حيث تعنى كلمة بوصرمان ـ الشخص الذى يعتنق ديانة أخرى بالنسبة للمسيحى. وهى مثل كلمة كافر بالنسبة للمسلم;

(57) هذا أمر غريب بالنسبة لأفكار بليخانوف. ولكن من الواضح أن خبرته الجيدة بالتاريخ الروسى ومعرفته العميقة به قادته إلى هذا التفكير. فمن خلال الصحف والحكايات كان يعرف أن البلاشفة قد بدأوا فى اتخاذ إجراءات خشنة فى مجال الدعاية إلى الألحاد ومكافحة الدين. وقد وافق بليخانوف على بعض الإجراءات التى اتخذوها مثل إصدار قرار تأميم أملاك الكنسية، وبناء بيوت للمشردين فى بعض الكنائس، ولكنه لم يوافق على الطرق التى تم اتخاذها لتحقيق ذلك;

(58) يبدو أن العبارات التى بقيت غير واضحة كتبت فى الفترة من 7 إلى 21 أبريل عام 1918م.

ترجمة: أشرف الصباغ

تقديم د. فيصل درّاج

الوصية السياسية

أفكار بليخانوف الأخيرة

(انهيار التجربة السوفيتية)



مكتبة مدبولى